تاريخ ما بين السطور
الصين و حرب الأفيون الاستعمارية

رمضان مصطفى سليمان

رحلة إلى الصين قبل العاصفة

قلتُ لها، وأنا أحدّق في أفقٍ لم يكن مرئياً إلا في خيالي، كأنما أستدعيه من غيبٍ سحيق :

هيا يا صديقتي، احزمي متاعكِ، فإننا ، إن شاء القدر ، على موعد مع رحلةٍ ليست كسائر الرحلات، رحلةٌ قد تطول حتى يذوب فيها الزمن، وتتشابك فيها الأزمنة كما تتشابك خيوط الحلم.

رفعت حاجبيها في دهشةٍ ممزوجةٍ بسخريةٍ مريرة، وقالت بنبرةٍ تعرف كيف تُخفي خوفها خلف قناع التهكم :

وإلى أين يا صديقي الباحث عن المتاعب ؟ أما شبعت من ملاحقة المستحيل ؟

ابتسمت، لا لها وحدها، بل لذلك الطفل القابع في أعماقي، الذي لم يكبر رغم كل ما مرّ عليه من خيبات، وقلت :

إلى الصين، في عام 1837.

سقطت الكلمة عليها كصاعقةٍ تشق سكون غرفةٍ مغلقة. تراجعت خطوة، وكأنني دفعتها دفعاً إلى حافة هاوية، ثم صاحت: كأنك تريد أن تقصف عمري وأنا في ميعة الشباب ! مستحيل ! لن نذهب إلى الصين في ذلك العام، أبداً، أبداً !

وقفتُ أتأمل اضطرابها، وفي داخلي حوارٌ آخر لا يسمعه أحد سواي :

لماذا يخاف البشر من الحقيقة حين تكون بعيدة عنهم ؟ ولماذا يطمئنون إلى الأكاذيب لأنها مألوفة ؟

قلت لها بهدوءٍ مصطنع :

أعجب لفزعك هذا، لا أرى ما يبرره.

نظرت إليّ نظرة من يعرف أنه أمام معامرٍ لا يُؤتمن، وقالت :

لا ترى ما يبرره ؟ ! ألا تعلم أن الصين في ذلك العام كانت تغلق أبوابها في وجه العالم ؟ ألا تعلم أن دخولها بغير إذنٍ من الإمبراطور يعني الموت ؟

توقفت لحظة، ثم أردفت بصوتٍ أكثر جدية :

هناك قوانين لا تُكسر، يا صديقي. وهناك حدود ليست مجرد خطوط على الخرائط، بل أسوارٌ من الدم.

ضحكتُ، لا استخفافاً بها، بل بذلك المنطق الذي يحاول أن يُقنع الروح بالبقاء في القفص، وقلت :

ومنذ متى احتجنا إلى إذنٍ من إنسان لنعبر الزمان والمكان ؟ نحن لا نطلب الإذن، نحن نكتبه.

ثم همست، كأنني أبوح بسرٍ لا يجوز أن يُقال :

الرحلات الكبرى لا تبدأ بالتصاريح، بل بالجنون.

هزّت رأسها في امتعاض :

بل تبدأ بالنهايات، يا هذا.

+

جلستُ قبالتها، وبدأت أستحضر في ذهني صورة تلك البلاد البعيدة، كأنني رأيتها من قبل في حلمٍ قديم :

مدنٌ يغمرها الضباب، أنهارٌ تسير ببطء الحكمة، ووجوهٌ تحمل تاريخاً لا يُقال بل يُعاش.

قلت لها :

أتعلمين لماذا أريد الذهاب ؟ ليس لمجرد الرحلة، بل للحقيقة. لقد شوهوا تلك البلاد في كتبهم، جعلوها أرض الأفيون، وكأنها كانت منبع الفساد.

قاطعتني بسرعة :

أليست كذلك ؟ أليست الصين آنذاك غارقة في الأفيون ؟

تنهدت، وشعرت بثقل الفكرة التي أحملها، كأنني أحمل تاريخاً بأكمله على كتفي :

لا، بل كانت ضحية له.

ساد صمتٌ قصير، لكنه كان مشحوناً بأسئلةٍ كثيرة.

ثم قلت :

الغرب، يا صديقتي، لم يكن يحمل إلى الشرق علماً فقط، بل حمل إليه أيضاً سماً. الأفيون لم يكن نبتةً بريئة، بل كان سلاحاً ناعماً، حرباً بلا مدافع.

اقتربت مني قليلاً، وكأنها بدأت تتخلى عن حذرها: أتقصد أن،؟

قاطعتها :

نعم. لقد فُرض الأفيون على الصين فرضاً، حتى صار داءً ينخر في جسدها. وحين حاولت أن تقاوم، قيل عنها إنها بلد الإدمان.

تمتمت، وكأنها تحدث نفسها :

كم من حقيقةٍ قُتلت لتعيش رواية ؟

+

في تلك اللحظة، شعرتُ بأن الحوار لم يعد بيني وبينها فقط، بل بيني وبين نفسي.هل أنا أبحث عن الحقيقة حقاً، أم عن مغامرةٍ أُسكت بها خواء داخلي ؟

تذكرت بيتاً من الشعر، فقلت بصوتٍ خافت:

ومن لم يعانقه شوقُ الحياةِ تبخّر في جوّها واندثر

نظرت إليّ، وقد تغيّر في عينيها شيء، ربما كان فضولاً، وربما بداية اقتناع.

قالت :

وإن كانت الرحلة خطراً ؟

قلت :

كل حقيقةٍ عظيمة محفوفة بالخطر.

قالت :

وإن متنا ؟

ابتسمت :

نموت ونحن نعرف.

+

وقفت، واتجهت نحو النافذة، كان الليل قد بدأ ينسج ستاره، والمدينة تغرق في ضجيجها المعتاد.

لكن داخلي كان هادئاً بشكلٍ غريب، كأن القرار قد اتُّخذ منذ زمنٍ بعيد.

قلت لها دون أن ألتفت :

سنسافر بالباخرة.

ضحكت بسخرية :

ولماذا ليس بالطائرة ؟

التفتُّ إليها، وقلت مازحاً :

طائرة في عام 1837؟ يبدو أنكِ تسبقين الزمن أكثر مني !

ثم أضفت بجدية :

الباخرة تمنحنا الوقت، الوقت لنفهم، لنرى، لنُعيد ترتيب ما امتلأت به عقولنا من أوهام.

+

جلستْ صامتة، ثم قالت بعد تفكير :

وما الذي يضمن أنك على حق ؟

قلت :

لا شيء.

قالت :

إذن لماذا نذهب ؟

اقتربت منها، ونظرت في عينيها مباشرة :

لأن الشك بداية المعرفة.

ثم أضفت :

ولأننا إن بقينا هنا، سنعيش بما قيل لنا، لا بما هو كائن.

سكتت طويلاً، حتى ظننت أنها حسمت أمرها بالرفض .لكنها فجأة قالت :

ومتى الرحيل ؟

شعرتُ بشيءٍ يشبه الانتصار، لكنه لم يكن انتصاراً عليها، بل على ذلك الخوف الذي يسكننا جميعاً.

قلت بهدوء :

عند أول فجرٍ لا يشبه سابقيه.

ابتسمت ابتسامة خفيفة، وقالت :

أنت مجنون، لكن يبدو أنني سأرافقك.

+

في تلك اللحظة، أدركت أن الرحلة لم تبدأ بعد، ومع ذلك فقد بدأت بالفعل .فالرحلات الحقيقية لا تبدأ بخطوة، بل بفكرة، ولا تنتهي بوصول، بل بتغير.

وهمست لنفسي :

سنذهب إلى هناك، لا لنرى الصين، بل لنرى أنفسنا كما لم نرها من قبل.

رفعت رأسي، وكأنني أرى الأفق يتشكل أمامي، وقلت: هيّا بنا، فالتاريخ لا ينتظر المترددين.

على حافة الدخان
يوم انفتح باب السماء للأفيون

كانت السماء يومها مشوبة بزرقةٍ خافتة، كأنها تتردد بين صفاءٍ مكسور وغيومٍ تتآمر في صمت. وقفنا على ظهر السفينة الإنجليزية، تتلاعب بنا الرياح كما تتلاعب الأقدار بالبشر، ويمتد أمامنا بحرٌ لا يُقرأ، بحر الصين، حيث لا الماء وحده يغرق، بل تُغرق معه أممٌ بكاملها في نشوةٍ سوداء تُسمى الأفيون.

التفتُّ إليكِ، يا صديقتي، وكانت عيناكِ تراقبان الأفق بحذرٍ يليق بمن يقرأ التاريخ قبل أن يقع. قلتُ بصوتٍ خفيض، كأنني أخشى أن تسمعنا الريح :

هنا، من هذا البحر تحديدًا، أغرق الإنجليز والفرنسيون أرض الصين بالأفيون. يا للمفارقة ! يزعمون أن الصين موطنه، بينما لم يكن أحدٌ من أبنائها يجرؤ على زرع شجرةٍ واحدة.

ارتسمت على شفتيها ابتسامةٌ ممزوجة بدهشةٍ حزينة، وسألتِ :

ألهذا الحد ؟

أجبتها وأنا أحدق في الماء الذي صار فجأةً أثقل :

بل أشد. كان العقاب الإعدام الفوري. ليس للمزارع وحده، بل لكل من رأى الشجرة ولم يبلغ عنها. كان القانون هناك لا يطارد الجريمة، بل يطارد الظل الذي يمر بها.

سكتُّ لحظة، ثم أضفتُ كأنني أفتح بابًا خلفيًّا للحكاية :

فأين كان يُزرع إذن ؟

نظرتِ إليّ، ولم تنتظري الجواب طويلًا.

قلتُ :

في الهند، في الجزء الذي احتله الإنجليز. هناك، حيث لا تُزرع الأرض حبًا في الحياة، بل طمعًا في الموت. كانت شركة الهند الشرقية هي الوكيل العام، الزارع والتاجر، اليد التي تزرع، والعين التي تحصي الأرباح، والقلب الذي لا يخفق.

تغيرت ملامحي ، وقلتِ :

والفرنسيون ؟

لم يكونوا أقل جشعًا، وإن كانوا أقل شأنًا في تلك البقعة. في الجزء الذي احتلوه، كانت الحكومة الفرنسية نفسها هي الزارعة والبائعة. دولةٌ تبيع الموت كما تُباع السلع.

ثم ضحكتُ ضحكةً قصيرة، لا تخلو من مرارة:

وما أكثر ما تنازعوا، لا على الأخلاق، بل على الأسواق. وكأن الإنسان سوق، وكأن الروح سلعة.

+

هنا، بدأ صوت داخلي يتسلل إليّ، صوتٌ أعرفه جيدًا، يزورني كلما وقفتُ على حافة حدثٍ تاريخي. قال لي :

أأنت شاهدٌ أم شريك ؟ أأنت راوٍ أم متواطئ بالصمت ؟

ارتجفتُ قليلًا. هل يكفي أن نكتب لنبرئ أنفسنا ؟ هل يكفي أن نروي لنغسل أيدينا ؟

تذكرتُ قول الشاعر :

وما كلُّ ما يتمنّى المرءُ يُدركهُ

تجري الرياحُ بما لا تشتهي السُّفنُ

لكن أي سفنٍ هذه التي تجري بما تشتهي الجشع، لا الرياح ؟

+

عدتُ إليكِ، وقد بدا أنكِ تقرئين في وجهي ما يدور في داخلي. قلتِ :

تبدو كأنك تحمل ذنبًا لم ترتكبه.

ابتسمتُ ابتسامةً شاحبة :

أحيانًا، يكفي أن ترى لتصبح مسؤولًا.

ثم تابعتُ :

أهم الأسواق كلها، كان السوق الصيني. ذلك الجسد العظيم الذي أرادوا أن يحقنوه بالسم حتى يلين.

وهل قاومت الصين ؟

سألتِ.

بشراسةٍ لا تخلو من اليأس. في النهاية، اتفق الإنجليز والفرنسيون سرًا، سرًا كثيفًا كالدخان، على إرغام الإمبراطور على فتح الحدود. ليس للتجارة، بل للموت.

اقتربتِ خطوة، وقلتِ بصوتٍ خافت :

وما الذي جئنا لنراه ؟

نظرتُ إلى الأفق، حيث بدأت ملامح الميناء تلوح كجسدٍ ينتظر الطعنة، وقلتُ :

جئنا لنشهد بداية الصراع. اللحظة التي يتحول فيها القرار إلى نار.

سكتُّ قليلًا، ثم التفتُّ إليكِ فجأة :

ألم تقولي لي إن قرار الإمبراطور شيبا شا شينج يقضي بمنع دخول السفن الأجنبية إلى الموانئ ؟

أجبتِ بثقة :

أجل. قرارٌ صارم لا يقبل التأويل.

أشرتُ إلى السفينة التي تقلّنا، وقلتُ :

فما بال هذه السفينة، التي ترفع العلم البريطاني، تدخل في جسارةٍ إلى أرصفة ميناء ناموا ؟

اتسعت عيناكِ، ونظرتِ حولكِ، كأنكِ ترين المشهد لأول مرة.

قلتِ :

لن تسمح لها السلطات بالبقاء لحظة واحدة.

بالطبع لا، أجبتُ، وإلا تعرض ربانها وطاقمها للسجن، أو ما هو أسوأ.

ثم أشرتُ إلى الأفق، حيث بدأت سفنٌ صغيرة تظهر كأشباحٍ تتحرك :

ألا ترين ؟

قلتِ:

أجل، سفن صينية، تحاصرنا.

+

في تلك اللحظة، شعرتُ بشيءٍ غريب يتسلل إلى صدري. لم يكن خوفًا خالصًا، ولا حماسًا خالصًا، بل خليطٌ مربك، كأنني أقف على الحد الفاصل بين التاريخ والندم.

قال صوتي الداخلي مرة أخرى :

هذه ليست مجرد حادثة، هذه بداية حرب. بداية انكسار. بداية زمنٍ يُقاس فيه الإنسان بقدر ما يُدمن.

تذكرتُ حكمةً قديمة :

إذا فسدَتِ التجارةُ، فسدَتِ الأخلاقُ، وإذا فسدَتِ الأخلاقُ، سقطتِ الدول.

هل كنا نشهد سقوط دولة ؟ أم صعود وحشٍ جديد ؟

+

اقتربت السفن الصينية أكثر، كأنها دائرةٌ تضيق. كانت أعلامها ترفرف بصرامة، لا بزينة. رجالها واقفون بثبات، كأنهم جدران بشرية. لا صخب، لا فوضى، فقط صمتٌ يسبق العاصفة.

قلتُ لكِ : هؤلاء لا يقاتلون فقط دفاعًا عن أرض، بل عن وعي. عن عقلٍ يريدون حمايته من الغرق.

أجبتِ :

لكن هل يمكن إيقاف بحرٍ من الأفيون؟

سؤالكِ اخترقني. لم أجب فورًا. نظرتُ إلى الماء، إلى السفينة، إلى الرجال الذين يبدون واثقين حد الغرور، ثم قلتُ :

أحيانًا، لا يُهزم العدو لأنه أقوى، بل لأنه أكثر صبرًا على الفساد.

+

بدأت الأوامر تُطلق على سطح السفينة الإنجليزية. أصواتٌ حادة، خطواتٌ سريعة، وعيونٌ لا ترى في الأفق إلا أرباحًا محتملة. لم يكن أحدٌ منهم ينظر إلى السفن الصينية كخصمٍ أخلاقي، بل كعقبةٍ لوجستية.

همستُ :

انظري إليهم، هؤلاء لا يرون بشرًا، بل سوقًا مغلقًا يجب فتحه.

قلتِ :

وهل يُفتح السوق بالقوة ؟

أجبتُ :

حين تفشل الأخلاق، نعم.

+

تقدم أحد الضباط، وصوته يحمل نبرةً آمرة :

لن نتراجع. هذه مياهٌ للتجارة، ولسنا هنا للتفاوض.

ضحكتُ في داخلي بمرارة :

التجارة، كلمةٌ بريئة تُستخدم أحيانًا كقناعٍ للجريمة.

تذكرتُ بيتًا آخر :

وإذا أتتكَ مذمّتي من ناقصٍ فهي الشهادةُ لي بأني كاملُ

لكن من الكامل هنا ؟ ومن الناقص ؟ وهل التاريخ ينصف أم يدوّن فقط ؟

+

التفتُّ إليكِ، وقلتُ :

إذن، لنسرع. لننقل لقرائنا صورة ما سيحدث.

أمسكتِ بدفترِكِ، وبدأتِ تكتبين بسرعة، بينما كنتُ أراقب المشهد بعينٍ وأدوّن بالأخرى في ذاكرتي.

قلتُ :

اكتبي، اكتبي أن البحر لم يكن أزرق فقط، بل كان رماديًا من ثقل ما يحمله. اكتبي أن السفن الصينية لم تكن مجرد خشبٍ ومسامير، بل إرادة أمة. واكتبي أن السفينة الإنجليزية لم تكن مجرد وسيلة نقل، بل رأس حربة في حربٍ بلا إعلان.

رفعتِ رأسكِ، وسألتِ :

وماذا عنّا ؟

سكتُّ لحظة، ثم قلتُ :

اكتبي أننا كنا هنا، شهودًا. لا نملك إلا الكلمة. والكلمة، أحيانًا، أضعف من أن توقف رصاصة، لكنها أقوى من أن يمحوها الزمن.

+

في داخلي، كان الصراع يشتد. هل يكفي أن نحكي ؟ هل الحكاية مقاومة ؟ أم تواطؤ جميل ؟

سمعتُ نفسي أقول بصوتٍ لا أدري إن كان لكِ أم لي :

ربما لا نستطيع تغيير ما سيحدث، لكننا نستطيع أن نمنع الكذب من أن يكون هو الرواية الوحيدة.

+

اقتربت السفن أكثر. الأصوات ارتفعت. الأوامر تداخلت. وبدأ التاريخ، لا يُكتب، بل يُنتزع.

وفي تلك اللحظة، أدركتُ أن ما سنشهده ليس مجرد صدام سفن، بل صدام رؤيتين:

رؤية ترى الإنسان روحًا يجب حمايتها، ورؤية تراه جسدًا يمكن بيعه.

همستُ، كأنني أودع براءة العالم :

هنا، يبدأ كل شيء.

على تخوم الريح والسلطة
حكاية الميناء الموارب

كان الميناء، عند انحناءة الضوء الأخير، يشبه جفناً ثقيلاً على وشك أن يغفو، بينما البحر من تحته يهمس بأسرارٍ لا تُقال إلا لمن أرهف السمع، أو لمن أُثقل قلبه بما يكفي ليفهم. كانت الأمواج تضرب جوانب السفينة البريطانية كأنها تُذكّرها بأنها دخيلة، وأن المياه—مهما اتسعت—لا تنسى أسماء الغرباء.

صعد الرجل الصيني، أحد كبار موظفي البلاط، إلى ظهر السفينة بخطواتٍ موزونة، تحفّ به ثلة من الرجال، كأنهم ظلاله الممتدة. كان يحمل في عينيه مزيجاً من السكون واليقظة، ذاك السكون الذي لا يخلو من حذر، وتلك اليقظة التي لا تخلو من تعب. كان يعرف أن هذا اللقاء ليس مجرد إجراء إداري؛ إنه فصل صغير في كتابٍ أكبر، تُكتب صفحاته بين الإمبراطوريات.

رفع رأسه، وتأمل ربان السفينة، ثم قال بنبرةٍ لم تكن خالية من التوبيخ :

آه، كابتن فورستر مرة أخرى ؟ ألا تعرف عقوبة من يدخل ميناءً صينياً دون إذن خاص من صاحب الجلالة ؟

في تلك اللحظة، شعر فورستر بشيءٍ يمر في صدره ، ليس خوفاً تماماً، ولا ثقة خالصة. بل شيء بينهما، كخيطٍ مشدود فوق هاوية. ابتسم ابتسامةً محسوبة، وقال بنبرةٍ يغلفها الرياء كما يغلف الضباب وجه الصباح :

يا صاحب السعادة والبهاء، بالله ماذا أفعل في تقلبات البحر؟ إنني أعرف تماماً قوانين دولتكم المبجلة، ولكن العواصف ألجأتني إلى هذا الميناء الجميل، ميناء ناموا، كي أرمم ما تحطم من سفينتي، وأعيد

إصلاح أشرعتها، ثم أتابع طريقي. وإن كنت في شك مما أقول، فاسأل ربان السفينة الفرنسية التي لن تلبث أن تدخل الميناء بعدنا.

ابتسم الموظف الصيني ابتسامة خفيفة، لا تُفهم بسهولة ، كأنها لغزٌ صغير في وجه الزمن – وقال :

سفينة فرنسية أيضاً ؟ يبدو أن البضاعة ثمينة هذه المرة، إنجليزية وفرنسية.

في داخله، لم يكن يبتسم. كان يفكر:

كم من السفن جاءت بهذه الذريعة ؟ وكم منها حملت في جوفها ما يفسد أكثر مما يُصلح ؟ أهي العواصف حقاً، أم أن البحر صار ستاراً للأطماع ؟

قال فورستر في مرحٍ متكلف :

لا أشك أن سعادتكم، بإذن الإمبراطور، ستسمحون لسفينتي بالبقاء فترة من الزمن أتم فيها الإصلاحات، وأتزود بالماء العذب، ثم أتابع طريقي التي أرغمتني العاصفة على الانحراف عنها.

هنا توقف الزمن لحظة، أو هكذا بدا للموظف. نظر إلى البحر، ثم إلى الرجال من حوله، ثم عاد ببصره إلى فورستر. كان القرار، في ظاهره بسيطاً، لكنه في جوهره اختبار: اختبار للسلطة، واختبار للنوايا.

حسناً، حسناً، ستحصل على ما تريد من تسهيلات، يا كابتن فورستر، على شريطة أن تغادر الميناء على الفور بعدها. أمامك أربع وعشرون ساعة، أتكفي ؟ ثق أنني لن أعطي السفينة الفرنسية أكثر من هذا الوقت ، هذا إن جاءت.

أجاب فورستر بثقةٍ لا تخلو من التحدي :

ستأتي دون شك، يا صاحب السعادة.

تأمله الموظف ، وقال بنبرةٍ فيها شيء من الفضول :

يبدو أنكم، أنتم والفرنسيون، قد وصلتم إلى هدنة بحرية ؟

ضحك فورستر قليلاً، ثم قال :

أخيراً، يا صاحب السعادة، وبعد صعوبات عديدة.

لكن في داخله، لم يكن يضحك. كان يعلم أن الهدنات لا تدوم، وأن البحر لا يعترف إلا بالقوة. هدنة؟ بل استراحة بين عاصفتين، هكذا قال لنفسه.

رفع الموظف صوته فجأة، كأنما أراد أن يقطع خيط التفكير لدى الجميع :

حسناً، قبل أن يقوم رجالي بتفتيش السفينة، خشية أن يكون في مخازنها السفلية ما يحرم القانون الصيني تسريبه إلى البلاد، أحب أن يقرأ لك رجالي القانون الخاص بالسفن الأجنبية.

ثم اقترب قليلاً من فورستر، وهمس بصوتٍ خافت :

معذرة، فهذه أوامر صاحب الجلالة، الإمبراطور مولانا المقدس.

أجاب فورستر بانحناءة خفيفة :

وإني لأنحني لكل ما جاء في القانون، يا صاحب السعادة، كل ما فيه. ومع ذلك، يسعدني أن أسمعه من رجالك، تطبيقاً للتعليمات.

+

بدأ أحد الجنود في قراءة القانون بصوتٍ جهوري، كأنما يقرأ نصاً مقدساً. كانت الكلمات تتردد في الهواء، تختلط بأصوات البحر، فتبدو كأنها جزء من إيقاعٍ أزلي :

من دخل أرضنا بغير إذن، فقد تعدّى، ومن أخفى في جوفه ما يفسد البلاد، فقد خان،

في تلك اللحظة، غاص الموظف الصيني في أعماقه. لم يعد يسمع الكلمات بوضوح، بل صار يسمع صدىً آخر ، صوت أبيه، الذي كان يقول له يوماً :

يا بني، ليست القوانين إلا حراساً، أما الضمير، فهو الملك.

تساءل في نفسه :

وهل ما أفعله الآن حراسة أم خضوع ؟ وهل هؤلاء الرجال غرباء فقط، أم أنهم رسل تغيير لا نراه بعد ؟

أما فورستر، فقد وقف ساكناً، لكن داخله كان يغلي. كان يعلم أن في جوف سفينته ما لا ينبغي أن يُرى. لم يكن مجرد تاجر، بل كان جزءاً

من لعبة أكبر، لعبة تُرسم خرائطها في غرف بعيدة عن هذا الميناء الصغير.

إنهم لا يعرفون، أو ربما يعرفون ويتغافلون. المهم أن تمر الليلة بسلام.

رفع عينيه إلى السماء، فرأى الغيوم تتجمع ببطء. ابتسم في داخله :

حتى السماء تبدو مترددة، كأنها لا تعرف إلى أي جانب تميل.

+

انتهت قراءة القانون، وساد صمتٌ ثقيل. كان الصمت هنا ليس فراغاً، بل امتلاء—امتلاء بالاحتمالات، بالخوف، وبالقرارات المؤجلة.

قال الموظف الصيني :

سنبدأ التفتيش الآن.

في تلك اللحظة، شعر فورستر بأن الزمن قد ضاق، وأن كل ثانية تمر تحمل معها احتمال الانكشاف.

لكنه قال بثبات :

بالطبع، تفضلوا.

+

وبينما بدأ الرجال بالنزول إلى المخازن السفلية، وقف الرجلان—الموظف والربان—على سطح السفينة، يراقبان البحر.

قال الموظف فجأة، دون أن ينظر إليه :

يا كابتن، هل تؤمن أن البحر يُخفي أكثر مما يُظهر ؟

أجاب فورستر بعد لحظة صمت :

بل أؤمن أن البشر يفعلون ذلك أكثر من البحر.

ابتسم الموظف، وقال :

حكمةٌ جميلة، أو ربما اعتراف.

+

وفي تلك اللحظة، مرّ خاطر شعري في ذهن الموظف، كأنما انبثق من أعماق التاريخ :

إذا غامرتَ في شرفٍ مرومِ فلا تقنعْ بما دونَ النجومِ

ثم أضاف في نفسه :

لكن أي شرف هذا؟ شرف الطاعة أم شرف المقاومة ؟

أما فورستر، فقد تذكر قولاً قديماً كان يردده أحد البحارة :

وما نيلُ المطالبِ بالتمني ولكن تؤخذُ الدنيا غلابا

فابتسم، وقال في داخله :

وهذا ما نفعله، غلاباً، لا استئذاناً.

+

وهكذا، وقف الرجلان على سطح السفينة، كلٌ منهما يحمل عالماً في داخله، عالماً لا يراه الآخر، لكنه يشعر بثقله.

البحر من حولهما كان شاهداً، والريح كانت رسولاً، والميناء ، ذلك الجفن الثقيل ، كان ينتظر أن يرى: هل سينام، أم سيفتح عينه على شيءٍ لم يكن في الحسبان ؟

على حافة الإمبراطورية
أنفاس الملح وحدود الرحمة

كان البحر في تلك الساعة يشبه صفحةً من معدنٍ حيّ، يتقلّب تحت ضوءٍ شاحبٍ كأن السماء قد نسيت أن تكتمل. والسفينة، بكل ما فيها من أخشابٍ تئنّ وأشرعةٍ ترتجف، بدت ككائنٍ ضالّ يطلب اعترافًا من أرضٍ لا تعرف الاعتراف. عند حافة ذلك العالم، حيث يلتقي الماء بالسلطة، وقف الكابتن فورستر صامتًا، يحدّق في الميناء الذي لا يرحّب، وفي الوجوه التي لا تبتسم.

كان الهواء مشبعًا برائحة الطحالب والقرارات الإمبراطورية. وفي لحظةٍ بدت عاديةً في ظاهرها، لكنها محمّلة بما لا يُرى، نادى الصيني على أحد رجاله، بصوتٍ لم يكن عاليًا، لكنه كان كافيًا ليُشعر الحاضرين بأن الكلمات القادمة ليست مجرّد كلمات، بل حدود تُرسم:

ووهنج، اقرأ قانون مولانا الإمبراطور المقدّس.

تقدّم الموظف الشاب، وفي عينيه انعكاس تردّدٍ عابر، كأنما يتساءل في سرّه: هل أنا قارئ قانون أم حامل سيف؟ ثم تنحنح، واستقام، وأخذ يقرأ بلهجةٍ روتينية، خالية من الانفعال، كما لو أن الحروف لا تعنيه، بل تهمّ من كُتبت لهم:

قرار جلالة الإمبراطور الخاص بتنفيذ القانون رقم 117 الصادر في عام 1837... لما كان ميناء كانتون هو الميناء الوحيد المسموح بدخول السفن الأجنبية إليه، فإنه لا يُصرّح لربابنة تلك السفن—تحت أي عذر أو ادعاء، كاذب في أغلب الأحيان—بدخول أي موانئ صينية أخرى أو الاتجار في مياهها بأي نوع من البضائع...

توقّف لحظة، كأن أنفاسه اصطدمت بثقل المعنى، ثم تابع:

ومع هذا، فإن صاحب الجلالة الرحيم، الذي لا يرفض رفده حتى للكلاب الأجانب المتوحشين، لا يمانع في إمداد السفن التي تلجأ إلى الموانئ الصينية بسبب العواصف بالمياه العذبة والطعام الضروري لبحارتها، على ألا تبقى في تلك الموانئ أكثر من أربع وعشرين ساعة.

وسكت.

كان الصمت الذي أعقب القراءة أثقل من الكلمات نفسها. صمتٌ لا يعبّر عن فراغ، بل عن امتلاءٍ متناقض: امتلاء بالمهانة، وبالسلطة، وبشيءٍ خفيّ يشبه الخوف.

رفع الموظف الكبير رأسه ببطء، ونظر إلى الكابتن فورستر نظرةً لم تكن خالية من ازدراءٍ مدرّب، وقال بنبرةٍ ساخرةٍ متقنة:

أرأيت يا كابتن فورستر مدى رحمة الإمبراطور لكم، معشر الكلاب الأجانب؟

ثم لوّح بيده، كمن يزيح ستارًا عن مشهدٍ انتهى:

والآن، أيها الرجال، غادروا السفينة جميعًا، ودعوني مع الكابتن فورستر. هيا، هيا.

انصرف الموظفون، وهم يترمقون بخبثٍ لا يحتاج إلى شرح، كأنهم يتركون وراءهم مسرحًا لاعترافٍ لن يُقال، أو مواجهةٍ لن تُحسم.

+

بقي فورستر واقفًا، ولم يتحرّك. لم يكن الصمت الذي يعيشه صمتًا خارجيًا فحسب، بل كان أشبه بحجرةٍ مغلقة داخل رأسه، تدور فيها الأسئلة دون أن تجد بابًا للخروج.

كلاب متوحشة،

تردّدت العبارة في داخله، لا كإهانةٍ فحسب، بل كمرآةٍ قاسية. هل كان غريبًا إلى هذا الحد ؟ أم أن الغربة لا تُقاس بالمسافات، بل بحدود الاعتراف ؟

تذكّر طفولته البعيدة، حين كان البحر وعدًا لا تهديدًا، وحين كانت الخرائط تبدو كقصصٍ يمكن إعادة كتابتها. لم يكن يدرك آنذاك أن كل خطٍ يُرسم على ورق، هو في الحقيقة خطٌّ يُرسم في مصير بشرٍ لا يُستشارون.

قال الموظف الكبير، وهو يقترب خطوة، بصوتٍ أخفض، لكنه أكثر حدّة:

أتعلم، يا كابتن، أن المشكلة ليست فيكم وحدكم؟ بل في ظنّكم أن العالم مفتوح لكم كما هو البحر.

لم يجب فورستر فورًا. كان ينظر إلى الرجل أمامه، محاولًا أن يفهم:

هل هو مجرد منفّذ، أم مؤمنٌ بما يقول ؟ والبحر، أليس كذلك ؟

قال فورستر أخيرًا، بصوتٍ متماسك، لكنه يحمل أثر تعبٍ قديم

.

البحر لا يعترف بالحدود.

ابتسم الموظف الكبير ابتسامةً خفيفة، لا تخلو من سخرية:

البحر، يا سيدي، لا يحكم. لكنه أيضًا لا يحمي. أنتم تعيشون في وهمٍ جميل: أن ما لا يُقيّدكم، يُعطيكم الحق.

تسلّلت الكلمات إلى عقل فورستر كقطرات ماءٍ باردة. هل هو وهم ؟

سأل نفسه، لا بصوت، بل بشيءٍ أعمق من الصوت.

نحن لا نطلب سوى التبادل،

قال فورستر، كأنه يدافع عن فكرةٍ أكثر من دفاعه عن نفسه.

تجارة، تواصل، معرفة

قاطعه الموظف الكبير:

وهي كلماتٌ نبيلة، بلا شك. لكنها حين تأتي محمولةً على مدافع، تفقد نقاءها.

سكت الاثنان لحظة.

كان الزمن بينهما يتكثّف، كأنه ينتظر قرارًا لا يخصّهما وحدهما.

+

في داخله، بدأ فورستر يغوص أكثر.

لم يكن يرى نفسه غازيًا. لم يكن ، في تصوّره ، سوى رجلٍ يسير في طريقٍ رُسم له. لكن، ما الذي يجعل الطريق شرعيًا ؟ هل لأنه مفتوح؟ أم لأنه مفروض ؟

تذكّر وجوه رجاله، الذين خرجوا قبل قليل. كانوا يثقون به، لا لأنه دائمًا على حق، بل لأنه لا يُظهر شكّه.

وماذا لو كان الشك هو الحقيقة الوحيدة ؟

قل لي بصراحة،

قال فورستر، وهو يرفع نظره إلى الرجل.

هل تؤمن حقًا أن الرحمة تكمن في هذا القانون ؟

لم يتردّد الموظف الكبير:

الرحمة ليست في السماح بالدخول، بل في تحديده. الفوضى ليست حرية، يا كابتن.

لكن الإهانة،

تمتم فورستر.

الإهانة شعور،

ردّ الرجل بهدوء،

والسياسة لا تُبنى على المشاعر.

ابتسم فورستر ابتسامةً باهتة:

بل تُبنى عليها أكثر مما تعترفون.

+

كان الحوار بينهما يتجاوز الكلمات، كأنه صراع بين رؤيتين للعالم: واحدة ترى التوسّع ضرورة، وأخرى ترى الانغلاق حماية.

قال الموظف الكبير، بعد لحظة تأمّل:

أنتم تظنون أنكم تحملون الحضارة، لكنكم لا تسألون: حضارة لمن ؟ وبأي ثمن ؟

أجاب فورستر، وقد بدأ صوته يحمل نبرةً أكثر صدقًا:

وربما أنتم تظنون أنكم تحمون أنفسكم، لكنكم لا تسألون: ماذا تخسرون حين تغلقون الأبواب ؟

نظر الرجلان إلى بعضهما، لا كخصمين، بل كمرآتين متقابلتين، تعكسان تناقضًا لا يمكن حسمه بسهولة.

+

في تلك اللحظة، مرّت موجةٌ خفيفة، فاصطدمت بجانب السفينة، فأصدرت صوتًا كأنه تنهيدة طويلة.

شعر فورستر بشيءٍ ينكسر داخله—ليس كبرياءه فقط، بل يقينه أيضًا.

ربما نحن جميعًا،

فكّر،

مجرد ضيوفٍ في عالمٍ لا يرحّب بأحد.

ستغادرون خلال أربعٍ وعشرين ساعة.

قال الموظف الكبير، بنبرةٍ حاسمة.

أومأ فورستر.

وسنغادر.

ثم أضاف، بعد لحظة:

لكن تذكّر، أن البحر لا ينسى.

ابتسم الرجل الصيني ابتسامةً غامضة:

ولا اليابسة.

+

عندما بقي فورستر وحده، عاد الصمت، لكنّه لم يعد كما كان. كان صمتًا مملوءًا بأسئلةٍ لم يعد يستطيع تجاهلها.

جلس على حافة السفينة، ونظر إلى الماء.

ما الذي يجعل الإنسان غريبًا ؟ هل هو المكان ؟ أم اللغة ؟ أم تلك اللحظة التي يُدرك فيها أنه لا يُرى كما يرى نفسه ؟

كان يدرك الآن أن الرحلة لم تكن نحو ميناءٍ فحسب، بل نحو تصدّعٍ داخلي.

وأن القانون الذي سُمع قبل قليل، لم يكن مجرّد نص، بل مرآةٌ كشفت هشاشة تصوّراته.

+

وفي مكانٍ ما، بعيدًا عن الضجيج، كان ووهنج—الموظف الشاب—يسير وحده، وقد خفّت عنه صلابة الدور الذي أدّاه.

هل كنتُ عادلًا ؟

سأل نفسه.

لم يكن يكره الأجانب، ولم يكن يحبّهم.

كان فقط جزءًا من آلةٍ أكبر، تُنتج قراراتٍ لا تسأل عمّن ينفّذها.

تذكّر نظرة فورستر، وشعر بشيءٍ يشبه التعاطف، لكنه سرعان ما دفنه.

في هذا العالم،

قال في سرّه،

التعاطف رفاهية.

+

عاد المساء، وانخفض الضوء، وبدأت السفينة تستعدّ للرحيل. لكن شيئًا ما لم يرحل.

بقيت الكلمات، والإهانات، والأسئلة، تتردّد بين الماء والذاكرة.

وكانت الحكمة التي لم تُقال صراحةً، لكنها وُلدت في تلك اللحظة:

أن الحدود ليست خطوطًا على الخرائط، بل جروحًا في الوعي؛ وأن الرحمة التي تُمنح من علٍ، قد تحمل في طيّاتها قسوةً لا تُرى؛ وأن الإنسان، مهما ظنّ أنه سيّد الطريق، يبقى غريبًا في أرضٍ لم يخترها قلبه.

ظلال الأفيون على رصيف نامو

لم يكن المساء في ميناء نامو مجرد انطفاءٍ للشمس، بل كان انطفاءً لليقين نفسه. الضوء الأخير كان يتكسر فوق صفحة الماء كأنه بقايا ضميرٍ متعب، والريح البحرية تحمل همسًا لا يُسمع، لكنه يُفهم، همسًا عن صفقاتٍ تُعقد في العتمة، وعن أرواحٍ تُباع دون أن يُذكر اسمها في دفاتر التاريخ.

قالت صديقتي، وقد عقدت حاجبيها في توجسٍ لا تخطئه العين: ، لا أدري لماذا أشعر أن هذا الرجل، مريبٌ كله.

نظرتُ إليها مبتسمًا ابتسامة خفيفة، كأنني أحاول أن أستبقي هدوءًا لا أملكه :

تعنين الماندران؟

ترددت لحظة، كأن الكلمة نفسها تحمل ثقلًا لا يليق بخفتها:

الماندران؟ ما معنى هذه الكلمة ؟

قلتُ، وأنا أشيح بنظري نحو الميناء حيث تتماوج الظلال :

الماندران، يا صديقتي، هو ذاك الرجل الذي يقف على تخوم السلطة والتجارة معًا، تاجرٌ كبير، نعم، لكنه ليس مجرد تاجر. إنه ابن الدولة، أو أحد نبلائها، رجلٌ يتقن الانحناء حين يجب، والبطش حين يُتاح. هو من أولئك الذين يكتبون القوانين بأيديهم، ثم يمزقونها في الليل حين تعترض طريق أرباحهم.

سكتُّ قليلًا، ثم أضفت بصوتٍ أخفض :

أما قولك إنه مريب، فذلك يتوقف على ما سيُقال بينه وبين الكابتن فورستر، بعد أن ينصرف هؤلاء الموظفون الذين يحيطون به الآن كأنهم درعٌ من الاحترام المصطنع.

كان المشهد أمامنا مسرحيًا إلى حدٍ بعيد. الماندران واقفٌ بثباتٍ لا يخلو من استعراض، يحيط به رجاله، بينما الكابتن فورستر، بقبعته الإنجليزية وملامحه الحادة، يقف قبالته كمن اعتاد أن يساوم العالم كله دون أن يطرف له جفن.

وحين انصرف الجمع، بدأ الحديث، وبدأت معه الرائحة الخفية للريبة.

ضحك الماندران ضحكة مرحة، لكنها كانت، في عمقها، خالية من البراءة :

إذن، فقد تصالحتم مع الفرنسيين يا كابتن فورستر ؟

ابتسم فورستر ابتسامة إنجليزية باردة، وقال :

أخيرًا. الواقع يا عزيزي أن البضاعة لا جنسية لها ولا دين. فرنسية أو إنجليزية، في النهاية هي بضاعة تُتداول، ويجني منها البائعون والمشترون مالًا وفيرًا.

+

في داخلي، شعرتُ بشيءٍ ينقبض. تلك الجملة، ببساطتها الظاهرة، كانت تحمل فلسفة كاملة من التجرد القاسي، كأن الإنسان نفسه قد تحول إلى سلعة، بلا اسم ولا انتماء.

قال الماندران، وهو يحدق في فورستر بنظرةٍ فاحصة :

ما زلت مصرًا على مهلة الأربع والعشرين ساعة ؟

رد فورستر بثقةٍ لم تخلُ من تحدٍ :

لا تقل إنها لا تكفي لتفريغ ما لديّ من حمولة، سرية.

تسللت كلمة سرية كأفعى بينهما، لكنها لم تُفاجئ أحدًا.

تكفي جدًا، قال الماندران.

ثم اقترب خطوة، وخفض صوته :

حسنًا، كم صندوقًا في مخزنك ؟

ابتسم فورستر، ابتسامة رجلٍ يعرف أن الأرقام هنا ليست مجرد حساب :

كم تريد ؟

ليس أقل من مائتي صندوق، بنفس حجم الشحنة الأخيرة.

لك ما تريد، قال فورستر، بنفس الحجم، أما البضاعة، فأجود بكثير هذه المرة. مختلفة،

قاطعه الماندران ببرود :

لن أزيد جنيها واحدًا.

ثم أضاف، وعيناه تلمعان ببريقٍ قاسٍ :

أنت تعرف عقوبة بيع الأفيون في الصين، الإعدام. ولو كان الفاعل من الأسرة الإمبراطورية نفسها. وأذكرك أيضًا أننا، من جانبنا، لا نتردد في إعدام أي تاجر أجنبي يحاول أن يغشنا في نوعية البضاعة.

في تلك اللحظة، شعرتُ أن الهواء نفسه صار أثقل. كأن الكلمات لم تعد مجرد أصوات، بل أحكامًا تُنفذ قبل أن تُنطق.

ضحك فورستر، ضحكة ساخرة، وقال :

اطمئن، الإنجليز الكلاب لا يعضون . الذين يفعلون ذلك هم الفرنسيون الكلاب. فاحترس من شحنة السفينة الفرنسية التي ستدخل بعدنا.

ابتسم الماندران ابتسامة غامضة :

أنا أعرف كيف أتعامل مع الكلاب.

ثم سأله فورستر :

هل يقوم بحارتك بإنزال الشحنة، أم رجالي ؟

رفع الماندران حاجبيه بدهشةٍ مصطنعة :

بحارتك؟ هل جننت يا فورستر؟ رجالي بالطبع. في جوف الليل، كما اعتدنا.

كانت الجملة الأخيرة تحمل تاريخًا كاملًا من الجرائم التي لم تُكتب.

+

قالت صديقتي، وقد اتسعت عيناها :

هذا أشبه بما نراه في الأفلام، عن تجار المخدرات.

نظرتُ إليها، وقلتُ بهدوءٍ ثقيل :

عربية أو أجنبية، الطمع في المال، ولو على حساب أرواح الملايين، أزلي. لا زمن له، ولا جنسية.

ثم سكتُّ، لكن داخلي لم يسكت.

كنت أفكر في الماندران، لا كصورةٍ خارجية، بل كعقلٍ يتحرك خلف تلك الملامح الهادئة. ماذا يدور في داخله الآن ؟ هل يخاف ؟ هل يتردد ؟ أم أنه، ككثيرين قبله، أقنع نفسه بأن ما يفعله ليس سوى تجارة ؟

رأيتُه في خيالي وحده، بعد أن ينفض الجمع من حوله. يجلس في غرفته الواسعة، يخلع قناعه الرسمي، ويحدق في المرآة. هل يرى نفسه ؟ أم يرى مجرد دورٍ يؤديه ؟

ربما يقول لنفسه :

أنا لا أبيع السم، أنا أبيع ما يطلبه الناس.

ثم يتردد صدى صوتٍ آخر، أعمق، أكثر قسوة :

لكنهم لا يطلبونه، إلا لأنك جعلته متاحًا.

في تلك اللحظة، يبدأ الصراع.

ضميرٌ خافت، بالكاد يُسمع، يذكره بالمشانق التي رآها بعينيه، برجالٍ كانوا، يومًا، مثله. وجشعٌ صاخب، يصرخ في وجه ذلك الضمير: المكاسب خرافية، الحياة قصيرة، والسلطة لا تدوم.

وهكذا، ينتصر الصخب على الهمس.

+

قلتُ لصديقتي :

إذن، لم تكن ريبتك في غير محلها. إنه تاجر أفيون، وخائنٌ أيضًا للإمبراطور، الذي يبذل جهدًا صادقًا في محاربة إفساد شعبه.

ثم أضفت، وقد غلبني الأسى :

كم مرة عُلّقت على المشانق شخصيات من كبار رجال الدولة، اتُّهموا بالتهريب، ومع ذلك لم يرتدع أحد.

قالت بصوتٍ خافت :

لماذا ؟

نظرتُ إلى الأفق، حيث كانت آخر خيوط الضوء تختفي، وقلت :

لأن المكاسب، حين تكون خرافية، تُعمي العيون. يتضاءل أمام بريقها منظر المشنقة، بل يصبح، في نظر البعض، مجرد احتمالٍ بعيد.

سكتت قليلًا، ثم سألت :

أتحسب أن هذا الماندران سيفلت ؟

ابتسمتُ ابتسامة حزينة :

ربما سيفلت، بما أخذ، وبما سيأخذ من السفينة الفرنسية أيضًا.

ثم اقتربتُ منها قليلًا، وقلتُ بنبرةٍ أكثر جدية :

لكن الذي أعلمه، أن رجال الإمبراطور يراقبونه عن كثب. مراقبة لا تغفل.

تعلقت عيناها بي :

وماذا سيحدث ؟

أجبتُ ببطء، كأنني أرى المشهد قبل أن يقع :

انتظري، في صبر. ستراه يومًا، معلقًا من رقبته، في مشنقة على رصيف هذا الميناء.

+

في تلك اللحظة، مرّ الماندران من أمامنا. كانت خطواته واثقة، كأن الأرض نفسها تُفسح له الطريق. لم يلتفت إلينا، لكنه، بطريقةٍ ما، كان حاضرًا في كل فكرةٍ تدور في رأسي.

شعرتُ بشيءٍ يشبه الشفقة، لا عليه، بل على المصير الذي يسير إليه دون أن يتوقف.

كم هو غريب هذا الإنسان، يعرف النهاية، ويرى الأمثلة أمامه، ومع ذلك يمضي.

ربما لأن داخل كل إنسان ماندران صغير، مستعد لأن يساوم، إذا بدا الثمن مغريًا بما يكفي.

وهنا تكمن المأساة.

ليست في الأفيون وحده، ولا في التجارة، بل في ذلك الميل الخفي في النفس البشرية، الذي يجعلها تبرر لنفسها كل شيء، ما دامت النتيجة ذهبًا.

+

عاد الليل، واكتمل المشهد.

الميناء صار أكثر هدوءًا، لكن ذلك الهدوء لم يكن إلا ستارًا. في الأعماق، كانت القوارب الصغيرة تتحرك، والرجال يهمسون، والصناديق تُنقل، كأن العالم كله يتآمر في صمت.

نظرتُ إلى صديقتي، وقلت :

هل ترين ؟

قالت :

ماذا ؟

أشرتُ إلى الظلال :

التاريخ، وهو يُكتب.

ثم أضفت :

لكنه، هذه المرة، يُكتب بالحبر الأسود، لا بالحكمة.

+

وفي أعماقي، بقي سؤالٌ يتردد :

هل نحن شهود فقط، أم شركاء بصمتنا ؟

لكنني لم أنطق به.

بعض الأسئلة، حين تُقال، تُصبح أثقل مما نحتمل.

أفيون الإمبراطور
عندما تُشنق العدالة وتُغرق الإمبراطوريات ضمائرها

لم يطل انتظارنا طويلًا؛ كان الزمن في تلك اللحظات مشدودًا كوتر قوسٍ قديم، يرتجف بين أصابع قدرٍ لا يخطئ. وما إن غادرت السفينة البريطانية الميناء، تتهادى بثقل تجارتها الآثمة، حتى لحقتها سفينة تاغرنسيو في صمتٍ مريب، كأن البحر نفسه يأبى أن يشهد ما يُحاك على ضفافه من خيانات. ثم انسحبت الأخرى بدورها، تاركة خلفها أثرًا من ريحٍ مالحةٍ تحمل رائحة الفساد.

حينها فقط، ارتفعت المشانق. نُصبت في الساحة الكبرى، كأشجارٍ سوداء نبتت فجأة في أرضٍ جفّت من الرحمة. وتعالى همس الناس، ثم سكونهم، ثم خفق قلوبهم وهم يرون الماندرون السمين يُقاد بخطى متثاقلة، وقد أثقلته ذنوبه قبل جسده. كان الحبل المروغ يتدلّى كأفعى صبورة، تنتظر لحظة الانقضاض.

تساءلتُ في داخلي، وأنا أراقب المشهد بعينٍ يختلط فيها الرعب بالفضول:

هل يُمكن لحبلٍ أن يحمل كل هذا المعنل ؟ هل يُمكن لشنقةٍ واحدة أن تُطهّر تاريخًا من الانحلال ؟

سقط الجسد، وارتفع الصمت.

قيل إن هذا سيكون عبرةً لكل من تسوّل له نفسه خيانة ذمة الإمبراطور، لكنني لم أستطع أن أصدّق بسهولة. فقد بدا لي المشهد، رغم

قسوته، أقرب إلى مسرحيةٍ تُعرض على جمهورٍ يعرف نهايتها مسبقًا، لكنه يصفّق رغم ذلك، لأن لا خيار آخر أمامه.

وفي غمرة هذا التأمل، انشقّ الجمع عن سيدةٍ تقدمت نحونا بخطى واثقة، تحمل في ملامحها بقايا جمالٍ لم تذبل مع السنين، بل ازداد عمقًا ونضجًا. كانت في الخمسين من عمرها، غير أن عينيها احتفظتا ببريق امرأةٍ لم تستسلم للحياة، بل خاضتها حتى أقصى حدودها.

ابتسمت ابتسامة خفيفة، وقالت بصوتٍ فيه مرحٌ خافت :

دعيني يا آنسة أجيب على سؤالك، فأنا أعرف بواطن الأمور أكثر مما يعرفها صديقك.

تبادلتُ النظرات مع مرافقي، ثم عدت إليها، مأخوذةً بنبرة يقينها.

أردفت :

قضيت ثلاثين عامًا من عمري أدرس ظاهرة انتشار المخدرات، و أخطرها الأفيون بالطبع، في أرجاء العالم كافة، وخاصة هنا، في الصين. اسمي الدكتورة يويو جور، لكن يمكنك أن تناديني سابين.

ابتسمتُ وقلتُ بترددٍ مهذب :

سيدة سابين،

ضحكت ضحكة قصيرة، لكنها كانت صافية كنبعٍ قديم :

آنسة سابين، لو سمحتِ. لم أتزوج قط. وكيف أجد وقتًا للزواج وأنا أركض بين القارات، ألاحق تجار الموت ؟

وقفت لحظة، ثم أضافت وهي تنظر نحو المشنقة التي ما زال جسد الماندرون يتدلى منها :

لقد رأيتِ مصرعه، فهل تظنين أنه سيكون عبرةً لغيره ؟

صمتُّ. لم أجد جوابًا صادقًا لا يحمل شيئًا من السخرية.

تابعت هي، بصوتٍ خفتت فيه نبرة المرح، وحلّ محلها ثقل المعرفة :

أبدًا. رغم قوانين الإمبراطور، فإن السفن البريطانية والفرنسية تغرق الصين بملايين الأطنان من الأفيون المزروع في الهند. لقد فعل الإمبراطور المستحيل ليحمي شعبه من هذا الوباء، لكن دون جدوى.

كانت كلماتها تسقط عليّ كحجارةٍ صغيرة، كل واحدة منها توقظ في داخلي سؤالًا أكبر.

قالت :

المشكلة ليست في تاجرٍ يُشنق، بل في عالمٍ كاملٍ يتغذى على هذه التجارة. كلهم تقريبًا يتاجرون به، يفسدون الشباب والشيوخ، بل والنساء أيضًا.

شعرتُ بشيءٍ ينقبض في صدري. لم يكن حديثها مجرد سردٍ لوقائع، بل كان تشريحًا لضميرٍ عالميٍ يحتضر.

قلتُ، وأنا أحاول أن أستعيد توازني :

المدهش يا آنسة، أن الذين يقيمون هذه التجارة في موانئ الصين هم الممثلون الرسميون للحكومتين الفرنسية والإنجليزية، علانيةً، ومع ذلك يزعمون أنهم وحدهم رسل الحضارة في الشرق !

رفعت سابين حاجبها قليلًا، وقالت بنبرةٍ تجمع بين الواقعية والأسى :

هذا ادعاءٌ باطل، نعم. لكن الصورة أكثر تعقيدًا مما تبدو عليه. هناك كثيرون في إنجلترا وفرنسا يعارضون هذه السياسة، ويطالبون بإنهاء تجارة الأفيون، لكن أصواتهم تضيع.

اقتربت خطوة، وكأنها تهمس بسرٍ ثقيل :

تضيع أمام العجز المرعب في ميزانيات الدولتين. الحروب الاستعمارية تستنزفهم، والأفيون، للأسف، يُنقذ خزائنهم.

توقفت، ثم قالت ببطء، وكأنها تستحضر مشهدًا من ذاكرةٍ بعيدة :

يكفي أن إمبراطور فرنسا نفسه، حين اتُّهم بالتربح من هذه التجارة، قال :لولا شجاعة سفننا التجارية، التي تحميها سفن الأسطول، لما استطعنا سد العجز في ميزانية الدولة، وأنا مستعد لإصدار قانون يمنع تهريب الأفيون فورًا، بشرط واحد.

قلتُ بلهفة :

وما هو ؟

ابتسمت ابتسامةً خفيفة، لكنها كانت مُرّة :

أن تصدر الحكومة البريطانية قرارًا مماثلًا.

ضحكتُ، لكن ضحكتي خرجت مشروخة :

وبالطبع، لم يحدث.

هزّت رأسها :

بالطبع. رئيس الوزراء البريطاني قال في نادي المحافظين :

حتى لو أصدرنا مثل هذا القانون، فستستمر سفننا وسفنهم في تهريب الأفيون، بل وستطلب حماية الأسطول. وإلا، كيف نحافظ على تحركاتنا العسكرية في الشرق ؟

ساد صمتٌ ثقيل بيننا.

في تلك اللحظة، شعرتُ أنني لا أقف في ساحة إعدام، بل في قلب معادلةٍ كونيةٍ قاسية، حيث تتصارع الأخلاق مع المصالح، وتخسر في كل مرة.

قلتُ، بصوتٍ خافتٍ كاعتراف :

إذن، يظل الإمبراطور الصيني، ذلك الرجل الشجاع الأمين، يحارب وحده، ؟

نظرت إليّ سابين طويلًا، كأنها تزن كلماتي في ميزان خبرتها، ثم قالت :

نعم، لكنه لا يحارب وحده في الحقيقة. هناك شعبٌ كاملٌ خلفه، وإن كان مُنهكًا. وهناك أيضًا، التاريخ.

سألتها :

التاريخ ؟

قالت، وعيناها تتجهان نحو الأفق :

نعم. فالتاريخ لا ينسى. قد يتأخر، قد يلتف، قد يُخدع أحيانًا، لكنه في النهاية يكشف كل شيء. أولئك الذين يبيعون السمّ اليوم باسم الحضارة، سيُكتبون غدًا في صفحاتٍ لا تُقرأ إلا بالعار.

تسلل صمتٌ جديد، لكنه هذه المرة كان مختلفًا، أقل وطأة، وأكثر امتلاءً بالمعنى.

وفي داخلي، بدأتُ أرى المشهد كله بشكلٍ آخر :

المشنقة، لم تعد مجرد أداة عقاب ، والماندرون، لم يعد مجرد خائن ، والإمبراطور، لم يعد مجرد حاكم.

بل صاروا جميعًا رموزًا في حكايةٍ أكبر- حكاية عالمٍ يبيع إنسانيته قطرةً قطرة، في زجاجاتٍ صغيرة من الأفيون.

تساءلتُ في أعماقي :

هل يمكن لعدالةٍ تُعلّق رجلًا واحدًا أن تغفر صمت الملايين ؟ وهل يكفي شرف إمبراطورٍ واحد، ليواجه جشع إمبراطوريات ؟

لم أجد جوابًا. لكنني أدركت شيئًا واحدًا :

أن الحقيقة، مثل الأفيون، قد تكون مُرّة، لكنها، على عكسه، توقظنا بدل أن تُخدّرنا.

وفي ذلك اليوم، وأنا أغادر الساحة، لم يكن المشهد الذي علق في ذاكرتي هو جسد الماندرون المتأرجح ، بل كلمات سابين، وهي تتردد في داخلي كحكمٍ لا يزول :

ليس أخطر ما في السمّ أنه يقتل، بل أنه يُقنع ضحاياه بأنهم بخير.

حين يختنق البحر بالدخان
حكاية الإمبراطور الذي حارب الظلال

لم يكن البحر في تلك الأيام يشبه البحر الذي تعرفه العيون المطمئنة، بل كان جسدًا واسعًا يتنفس قلقًا، وتعلوه زرقة ملوّثة بوشوشات الغدر. كانت المراكب الأجنبية، كأشباحٍ ذات أشرعة بيضاء، ترسو بعيدًا عن المرافئ، حيث لا تصل القوانين ولا تمتد سلطة الإمبراطور، وهناك—في منطقة رمادية بين السيادة والفراغ—تتم صفقات لا يباركها ضمير، ولا يوقفها قانون.

كان قانون الإمبراطور واضحًا، صارمًا، كحدّ السيف :لا سفينة أجنبية ترسو في موانئ الصين .لكنه، رغم نقائه الظاهري، بدا عاجزًا أمام دهاء التجارة وشهوة الربح. فالتجار الصينيون، وقد أغواهم بريق الفضة وسهولة المال، ابتكروا حيلة لا تقل خبثًا عن موج البحر نفسه: سفن صغيرة، خفيفة، تنطلق ليلًا نحو عرض البحر، حيث تنتظر السفن البريطانية والفرنسية كذئاب صبورة. هناك، بعيدًا عن العيون، تُنقل صناديق الأفيون—تلك اللعنة البيضاء—ثم تعود محمولة إلى الشواطئ الطويلة، التي يستحيل أن تُحرس كما يُحرس باب قصر.

وكانت الشواطئ، في امتدادها، كأنها تنهيدة طويلة للأرض، لا تستطيع أن تقول لا، ولا تملك أن تمنع. فكل حبة رمل كانت شاهدًا صامتًا على خيانة صغيرة، وكل موجة كانت تغسل أثر جريمة لا تُمحى.

لأرباح ! كانت فاحشة، مغرية، تكفي لأن يبيع المرء روحه دون أن يلتفت.

وفي سبيلها، سقط الآلاف - لا من صغار الناس فقط، بل من كبار التجار أيضًا - رجال كانت أسماؤهم تُذكر باحترام، فإذا بها تُكتب في دفاتر الظلام.

+

قالت صديقتنا، وهي تُحدّق في الأفق كأنها ترى ما وراء الزمن :

تمامًا كما يحدث في أيامنا... يسقط الصغار، يُسحلون إلى السجون، أو تُلفّ أعناقهم بحبال المشانق، بينما أباطرة السموم... يجلسون في قصورهم، يحتسون الشاي، ويبتسمون.

كان صوتها هادئًا، لكنه يحمل مرارة عمر كامل .لم يكن اعتراضها على التاريخ، بل على تكراره.

سألتُها ، وأنا أشعر بثقل الكلمات :

أتعنين أن العدالة كانت - ولا تزال - تُطبّق على من لا يملكون القدرة على الإفلات ؟

ابتسمت ابتسامة خفيفة، كأنها تعتذر للحقيقة :

العدالة، يا صديقي، ليست عمياء كما يقولون... إنها ترى جيدًا، لكنها تختار أحيانًا أن تُغمض عينيها.

+

في قصر الإمبراطور، لم يكن الصمت عاديًا. كان صمتًا كثيفًا، كأنه يحمل في طياته قرارًا لم يُعلن بعد.

جلس الإمبراطور وحده، أمام نافذة تطل على حدائق مترامية، حيث الأشجار صامتة، والطيور لا تغني. كان وجهه شاحبًا، لكن عينيه كانتا مشتعلة بشيء أشبه بالتصميم... أو اليأس.

إلى متى ؟ همس في داخله.

كان صوته الداخلي أكثر قسوة من أي مستشار. لم يكن يسأله عن السياسة، بل عن الكرامة.

أأنا إمبراطور حقًا، إن كنت عاجزًا عن حماية شعبي من سمّ يُباع في ظلال بحري ؟ أأنا حاكم، أم شاهد صامت على انهيار بطيء ؟

تسللت إلى ذهنه صور لا يريدها :

شبابٌ غارقون في النعاس، عيون زجاجية، أجساد نحيلة كأنها تُمحى تدريجيًا... تجار يضحكون، يعدّون الفضة، يبررون لأنفسهم :إنها تجارة... لا أكثر.

لكن الإمبراطور كان يعرف أن الأمر ليس كذلك .لم يكن مجرد تبادل سلع، بل غزوٌ من نوع آخر—غزوٌ لا يُسمع له صوت مدافع، لكنه يُحدث دمارًا أعمق.

طرق أحد الخدم الباب، ثم انحنى :

مولاي... المجلس في انتظاركم.

نهض الإمبراطور ببطء، كأن القرار يثقل قدميه.

في قاعة المجلس، وقف الوزراء في صفوف منتظمة، وجوههم تحمل مزيجًا من الخوف والترقب. لم يكن أحد يجرؤ على البدء.

تقدم أحدهم، شيخٌ وقور، وقال :

مولاي... الوضع يزداد سوءًا. الأفيون يتدفق كالماء، والقوانين لم تعد كافية.

نظر إليه الإمبراطور طويلاً، ثم قال :

القوانين... أم الإرادة ؟

ارتبك الرجل، ولم يُجب.

تدخل آخر، بصوت حذر :

هناك اقتراح، يا مولاي... بقطع العلاقات التجارية والدبلوماسية مع الدول الأوروبية، وطرد رعاياها من البلاد.

ساد الصمت. كانت الكلمات ثقيلة، كأنها إعلان حرب غير مكتوب.

قال الإمبراطور، ببطء :

وهل تظنون أنهم سيغادرون بهدوء ؟

لم يجب أحد.

فأضاف، بنبرة حادة:

أم أنهم سيعودون... بأساطيلهم ؟

+

في زاوية القاعة، وقف مستشار شاب، لم يتجاوز الأربعين، لكنه كان يحمل في عينيه جرأة نادرة .تقدم خطوة، وقال :

مولاي... الحرب محتملة، بل مؤكدة.

التفتت إليه الأنظار، وبعضها يحمل استنكارًا.

لكنه تابع :

لكن السؤال ليس: هل سنحارب ؟ السؤال هو: لماذا نحارب ؟

اقترب أكثر، وأضاف :

إن لم نحارب الآن دفاعًا عن شعبنا، فمتى ؟ وإن لم نخاطر من أجل الكرامة، فبماذا تستحق أن تُسمى دولة ؟

كان صوته يرتجف، لكنه لم يتراجع.

نظر إليه الإمبراطور، وكأنه يرى فيه انعكاسًا لجزء من نفسه.

+

في تلك اللحظة، عاد إلى ذهن الإمبراطور صوتٌ قديم—صوت والده، وهو يقول :

الحكم ليس أن تتجنب العواصف، بل أن تعرف متى تواجهها.

أغمض عينيه للحظة.

ثم فتحهما، وقد اتخذ قراره.

سنقطع العلاقات.

همس بها أولاً، ثم كررها بصوت أعلى :

سنقطع العلاقات مع الدول الأوروبية... وسنطرد رعاياها من أرضنا.

ارتفعت همهمات خافتة.

لكنه رفع يده، فأطبق الصمت.

وليكن ما يكون.

+

في الخارج، كانت الرياح قد اشتدت، كأن الطبيعة نفسها تستعد لما هو قادم.

وفي مكان آخر، في مقر البعثة البريطانية، كان لورد نابير يقف أمام خريطة كبيرة، يدرسها بعناية.

دخل أحد مساعديه مسرعًا :

سيدي... هناك أخبار. الإمبراطور ينوي قطع العلاقات.

لم يتفاجأ نابير، بل ابتسم ابتسامة باردة.

كنت أتوقع ذلك.

سأله المساعد :

وماذا سنفعل ؟

أجاب، وهو يمرر إصبعه على خطوط الساحل :

سنُذكّره... بثمن هذا القرار.

+

في اليوم التالي، كان اللقاء المرتقب.

قاعة فسيحة، تتوسطها مسافة كبيرة بين الطرفين - مسافة ليست فقط جغرافية، بل حضارية، نفسية، وربما أخلاقية.

دخل الإمبراطور أولاً، مهيبًا، لكن عينيه كانتا تحملان تعبًا عميقًا.

ثم دخل نابير، بخطوات واثقة، كأنه لا يدخل قصرًا، بل ساحة تفاوض.

انحنى انحناءة شكلية، ثم قال :

جلالة الإمبراطور... جئتُ برسالة صداقة.

نظر إليه الإمبراطور، وقال بهدوء :

الصداقة لا تأتي محمّلة بالأفيون.

توقف نابير لحظة، ثم ابتسم :

التجارة، يا مولاي، لها قوانينها.

رد الإمبراطور بحزم :

وأنا لديّ شعبي.

ساد الصمت.

ثم قال نابير، بنبرة تغيرت فجأة :

إذا أصررتم على هذا القرار... فقد تضطر بلادي إلى اتخاذ إجراءات... لا نرغب بها.

ابتسم الإمبراطور، لكن ابتسامته كانت حزينة :

تهديد بالحرب ؟

أجاب نابير، بلا مواربة :

نسميه... دفاعًا عن مصالحنا.

اقترب الإمبراطور خطوة، وقال :

وهل لدى الغرب، في مواجهة الشرق، إلا هذا الأسلوب ؟

+

في تلك اللحظة، لم يكن الحوار بين رجلين، بل بين عالمين. عالم يرى القوة حقًا، وعالم يرى الحق قوة.

وفي أعماق الإمبراطور، كان صوت داخلي يهمس :

قد تخسر الحرب... لكنك إن لم تخضها، فقد خسرت نفسك بالفعل.

أدار ظهره لنابير، ونظر إلى النافذة. كان البحر هناك، بعيدًا... لكنه حاضر.

همس، كأنه يخاطبه :

هذه المرة... لن أسمح لك أن تكون بوابة السم.

+

وهكذا، بدأت الحكاية - لا كصراع بين دولتين، بل كصراع بين إرادتين : إرادة تُقاوم الانهيار، وأخرى تُراهن على الضعف.

وفي مكان ما، على شاطئ طويل لا يُحرس، كانت سفينة صغيرة تتحرك في الظلام ...لكن التاريخ، هذه المرة، كان يراها.

عندما تكسّرت كبرياء الأمم على صخور الطمع

في القرن التاسع عشر، ذلك القرن الذي يُؤرَّخ له في كتب السياسة بلغة باردة، لكنه في ذاكرة الشعوب جرحٌ حيٌّ ينزف، كانت أوروبا تشبه وحشًا بحريًا عملاقًا، يمدّ أذرعه عبر المحيطات لا ليصافح، بل ليقبض، لا ليبني، بل ليبتلع. لم تكن السفن آنذاك مجرد وسائل نقل، بل كانت أسنانًا بيضاء لامعة في فكّ استعمارٍ جائع، تقضم السواحل وتلوكها بلا رحمة.

في ذلك الزمن، لم يكن هناك نظام دولي يردع، ولا ضمير عالمي يوقظ، بل كان قانون الغاب يكتب نفسه بالحبر الأسود فوق خرائط العالم. إنجلترا، فرنسا، البرتغال، هولندا، أسماء تُتلى اليوم كدول عظمى، لكنها آنذاك كانت تتنفس بمنطق واحد: من لا يملك يُستنزف، ومن لا يقاوم يُمحى.

كانت آسيا وأفريقيا مسرحًا واسعًا لتلك المأساة الكبرى. ذهبٌ يُنهب، وحقولٌ تُستعبد، وأجسادٌ تُستغل، وأرواحٌ تُكسر ببطء، كما يُكسر الضوء حين يمر عبر زجاجٍ مشروخ. لم يكن الاستعمار مجرد احتلال أرض، بل كان احتلال معنى الحياة ذاتها.

+

جلست الآنسة سابين قرب النافذة، حيث الضوء الرمادي يتسلل بخجل، وكأن النهار نفسه يشعر بالخزي مما يُروى. كانت عيناها تحملان ذلك الحزن الهادئ الذي لا يصرخ، لكنه يُرهق القلب.

قالت بصوتٍ منخفض، كأنها تخشى أن تسمعها الأشباح التي خلفها التاريخ :

لم يكن ما أراده الساسة البريطانيون والفرنسيون مجرد تجارة، بل كان إخضاعًا كاملاً، إخضاع الروح قبل الجسد.

سكتت لحظة، ثم نظرت إلى محدثيها، وكأنها تبحث في وجوههم عن بقايا براءة لم تُدنّس بعد. لقد أرادوا دفع الشعب الصيني، دفعًا، بلا رحمة، إلى إدمان الأفيون.

ارتعشت الكلمات في الهواء.

أتدركان ما يعنيه ذلك ؟ أن تُحوّل أمةً كاملة إلى كائنات نصف يقظة، نصف ميتة ؟ أن تُسرق الإرادة من داخل الإنسان نفسه ؟

+

كان الرجل الجالس أمامها، واسمه يوسف، يضغط على أصابعه بشدة، كأن الألم الخارجي أهون من الألم الداخلي الذي بدأ يتشكل في صدره. قال بصوتٍ متردد :

لكن، لماذا الصين تحديدًا ؟ ما الذي يجعل أمة كاملة هدفًا لهذا القدر من القسوة ؟

ابتسمت سابين ابتسامة حزينة، وقالت :

لأنها كانت قوية، وقوية بما يكفي لتُخيفهم، لكنها في الوقت ذاته نبيلة بما يكفي لتُقيّد نفسها بالقوانين.

ثم أضافت، وقد تلألأت عيناها بشيء يشبه الإعجاب :

الشعب الصيني، هو ربما الشعب الوحيد الذي استطاع أن يعيش التناقض دون أن ينكسر. كبرياء عميق، وتواضع أعمق. صلابة في الداخل، ولين في السطح. حضارة لا تصرخ، لكنها لا تنحني.

توقفت، ثم همست :

وهذا، بالضبط ما أرادوا تحطيمه.

+

في مكانٍ آخر، في زمنٍ آخر، كان رجل صيني يُدعى لي وي يجلس في غرفته الخشبية، يتأمل أنبوب الأفيون بين يديه.

كان يعلم. نعم، كان يعلم. لم يكن جاهلًا، ولا ساذجًا. كان يدرك أن هذا الدخان الذي يتصاعد ببطء ليس مجرد هروب، بل قيدٌ ناعم، قيدٌ لا يُرى، لكنه يُحكم قبضته كل يوم أكثر.

قال لنفسه، بصوتٍ داخلي مشحون :

أنا لست عبدًا، أنا فقط أحتاج إلى قليل من الراحة.

لكن صوته الآخر، ذلك الصوت الذي يسكن الأعماق، رد عليه بقسوة :

بل أنت تهرب. تهرب من عالمٍ يُسرق أمام عينيك، ولا تملك الشجاعة لتصرخ.

ارتجفت يده.

وماذا أفعل ؟ همس.

هل أوقف سفنهم ؟ هل أقاتل إمبراطوريات ؟ أنا مجرد إنسان.

رد الصوت :

وهنا تكمن المأساة، حين يقنعك العدو أنك صغير.

+

عادت سابين إلى حديثها، وكأنها تنقلهم بين الأزمنة :

لم يكن الأفيون يُزرع في الصين، كان محرمًا تحريمًا صارمًا، عقوبته الإعدام. كان الإمبراطور يدرك خطره، وكان القانون يقف كجدارٍ صلب.

ثم انحنت قليلًا للأمام، وقالت بنبرة حادة :

لكن أوروبا، لم تكن تحارب بالقوانين، بل بالالتفاف عليها.

بعد أن أخضعت بريطانيا الهند، لم تكتفِ بنهب ثرواتها، بل أعادت تشكيلها. حوّلت الحقول إلى مزارع للقطن والأفيون. القطن يغذي مصانعها، والأفيون، يغذي خطتها الأكبر.

رفع رأسه :

أي خطة؟

قالت سابين ببطء :

خطة إدمان أمة، ثم بيعها نفسها.

+

في أعماق البحر، كانت السفن تقف كأشباح صامتة قرب الموانئ الصينية. لم تكن ترسو داخلها، بل تظل على مسافة، كأنها تحترم القوانين، ظاهريًا. لكن الحقيقة كانت أكثر خبثًا.

تحولت تلك السفن إلى متاجر عائمة، حيث يأتي التجار الصينيون بأنفسهم، يحملون أموالهم، ويعودون بصناديق الموت.

كانت جزيرة لينتين شاهدًا صامتًا على هذه الجريمة المنظمة. هناك، حيث يلتقي الماء بالسماء، كان يُكتب فصلٌ مظلم من تاريخ البشرية.

+

في قصر الإمبراطور، كان الصمت ثقيلًا.

وقف أحد المستشارين وقال :

يا مولاي، إنهم لا يهاجموننا بالسيوف، بل بالدخان.

رفع الإمبراطور عينيه، وكان في نظرته شيء من الحزن العميق:

الدخان أخطر من السيوف، لأنه لا يُرى.

ثم أضاف:

حين يسقط الجسد، يمكن أن يُشفى. لكن حين تسقط الروح، فذلك سقوطٌ لا يُقاس.

+

في لندن، كان المشهد مختلفًا تمامًا.

جلس اللورد بالمرستون في مكتبه، يحدق في خريطة العالم. لم يكن يرى شعوبًا، ولا ثقافات، بل كان يرى أرقامًا، طرق تجارة، أرباحًا وخسائر.

قال بصوتٍ بارد :

إذا لم تُفتح الصين للتجارة، فسوف نفتحها بالقوة.

لم يكن في صوته غضب، ولا حماسة، بل كان هناك شيء أكثر رعبًا: اللامبالاة.

+

عاد الحوار بين سابين ويوسف.

قال يوسف :

لكن، أليس هذا ظلمًا واضحًا ؟ أليس هناك من اعترض ؟

ضحكت سابين، ضحكة قصيرة خالية من الفرح :

الظلم، يا يوسف، لا يُهزم بالوضوح، بل بالقوة. وما دام الظالم أقوى، فإنه يكتب القصة كما يشاء.

ثم أضافت :

لقد كانت هناك أصوات، لكنها كانت ضعيفة، غارقة في بحر المصالح.

+

في تلك اللحظة، شعر يوسف بشيء يتغير داخله. لم يعد يسمع القصة كحكاية بعيدة، بل كمرآة.

قال بصوتٍ منخفض :

هل تغير شيء اليوم ؟

نظرت إليه سابين طويلًا، ثم قالت :

الأسماء تغيرت، الأساليب تطورت، لكن الجوهر ؟

سكتت. الجوهر لا يزال نفسه.

+

في داخله، بدأ يوسف حوارًا صامتًا :

هل نحن أيضًا، نُستنزف ؟ هل هناك أفيون جديد، لا نراه ؟ هل الحرية التي نعيشها، حقيقية، أم مجرد وهمٍ مُحكم ؟

كانت الأسئلة تتكاثر، كأنها كائنات صغيرة تبحث عن معنى.

قالت سابين، وكأنها تقرأ أفكاره :

الاستعمار لم ينتهِ، لقد تغيّر شكله فقط. لم يعد يحتاج إلى سفن، بل إلى أفكار.

ثم اقتربت أكثر، وقالت :

أخطر ما يمكن أن يحدث لأي أمة، ليس أن تُهزم عسكريًا، بل أن تقتنع بأنها لا تستحق الانتصار.

ساد الصمت. كان صمتًا ثقيلًا، لكنه صمتٌ مليء بالحقيقة.

+

وفي مكانٍ بعيد، في ذاكرة التاريخ، ظل لي وي جالسًا، ينظر إلى أنبوب الأفيون.

لكن هذه المرة، لم يرفعه. وضعه ببطء.

وقال لنفسه :

قد أكون صغيرًا، لكنني لست بلا إرادة.

+

الحكمة التي تركها ذلك القرن، ليست مجرد درسٍ في السياسة، بل في النفس البشرية :

أن الطمع لا يشبع، وأن القوة بلا أخلاق تتحول إلى وحش، وأن الإنسان، حين يفقد وعيه، يصبح أداة في يد غيره.

لكن الأمل، رغم كل شيء، يبقى في تلك اللحظة الصغيرة، حين يقرر إنسان واحد أن يستيقظ.

فالتاريخ، في النهاية، لا تصنعه الإمبراطوريات فقط، بل تصنعه أيضًا تلك الأرواح التي ترفض أن تُطفأ.

حين تنحني الإمبراطوريات
حكاية الركوع الذي أنجب العاصفة

في مساءٍ ثقيلٍ من أمسيات كانتون، حيث يختلط عبير الشاي برطوبة البحر، وتتماوج الأشرعة البعيدة كأشباحٍ بيضاء على صفحة الأفق، جلست الآنسة سابين قرب النافذة الخشبية المزخرفة، تحدّق في نهر اللؤلؤ وكأنها تقرأ في مياهه تاريخًا لا يُمحى. كانت الغرفة ساكنة إلا من همسات الريح، لكن في داخلها كان ضجيجٌ من الأسئلة يضرب جدران الفكر.

رفعت رأسها ببطء، وقد انعكس في عينيها بريقُ حيرةٍ ممزوجةٍ بفضولٍ لا يهدأ، وقالت بصوتٍ خفيضٍ لكنه نافذ :

أكان في قدرة الصين، في ذلك الزمن المضطرب، أن تتصدى لقوة الأسطولين الفرنسي والبريطاني معًا ؟

لم يكن السؤال مجرد استفسار تاريخي؛ كان أشبه بمفتاحٍ يفتح أبواب ذاكرةٍ مثقلةٍ بالدماء والكرامة، بالغرور والخذلان.

سكتت لحظة، كأنها تنصت لصوتٍ داخلي، ثم أجابت، ولكن ليس كمن يسرد واقعة، بل كمن يستحضر روح عصرٍ كامل :

أجل، بل وأكثر من ذلك. كان الإمبراطور يرى في البحر خصمًا يمكن أن يخسره، لكنه لم يكن يرى في الأرض إلا حليفًا لا يُهزم.

ثم مالت قليلًا إلى الأمام، وكأنها تُسرّ بسرٍ خطير :

كان يقول لنبلاء البلاد، لقادة الجيوش الذين وقفوا بين يديه تحت ظلال الحرير والذهب :

قد نخسر معركةً في البحر، ولكننا سنسحق كل من يجرؤ أن يطأ تراب الصين.

+

هنا، يبدأ التاريخ في التحول إلى مسرحٍ حيّ، وتغدو الكلمات جنودًا، والذاكرة ميدانًا.

لم يكن الإمبراطور يتكلم بدافع الغرور وحده، بل من يقينٍ متجذرٍ في أعماق حضارةٍ ترى نفسها مركز العالم. كانت الصين آنذاك، في وعيها الذاتي، ليست مجرد دولة، بل كونًا مكتفيًا بذاته، لا يحتاج إلى الخارج إلا بقدر ما يشاء أن يمنحه.

وكان الأوروبيون- أبناء البحر - يدركون هذا جيدًا.

لقد تعلّموا الدرس، درسًا كُتب بالحديد والنار.

في زمنٍ سابق، حين ألمّ المرض بالإمبراطور، ظنّ التحالف الفرنسي البريطاني أن اللحظة قد حانت. تقدمت جيوشهم، مدفوعةً بثقةٍ استعماريةٍ عمياء، قاصدين بكين، كأنهم ذاهبون إلى وليمةٍ لا إلى حرب.

لكن الأرض التي استهانوا بها، ابتلعتهم.

لم تكن المعركة مجرد اشتباكٍ عسكري؛ كانت صدمة حضارية. انهار الجيش المشترك، وتبدد كغبارٍ في مهبّ الريح. لم ينجُ منه إلا من قُيّد بالأسر، شاهداً حيًا على فشلٍ لم يكن في الحسبان.

وهنا، تغيرت لغة القوة. تحوّل المتغطرسون إلى متوسلين.

اضطرت بريطانيا وفرنسا إلى إرسال الوسطاء، لا إلى ساحات القتال، بل إلى قاعات التوسل. وكان من بين هؤلاء رجال الإرساليات التبشيرية في كانتون، الذين حملوا الطلب إلى الإمبراطور: إطلاق سراح الأسرى.

+

في تلك اللحظة، نغوص في عقل الإمبراطور.

ما الذي كان يفكر فيه ؟ هل رأى فيهم أعداءً فقط؟ أم رموزًا لغطرسةٍ يجب كسرها ؟

في أعماقه، كان يدرك أن القوة ليست فقط في القتل، بل في الإذلال. أن الهيبة لا تُصنع بالسيوف وحدها، بل بالمواقف التي تُجبر الآخر على الانحناء.

جلس على عرشه، محاطًا بالصمت المهيب، وقال ببرودٍ يكاد يكون أكثر قسوة من الغضب :

لا أمانع في إطلاق سراح هؤلاء،

توقف، وكأن الكلمات نفسها تتردد قبل أن تولد.

هؤلاء الكلاب ذوي السحنة الشاحبة والأنوف الطويلة.

لم يكن الوصف مجرد إهانة؛ كان إعلانًا عن نظرةٍ متعاليةٍ ترى الآخر أدنى منزلة.

ثم أضاف، واضعًا شرطه الذي سيُخلّد في صفحات التاريخ :

لكن بشرط، أن يأتي المندوبون الإنجليز والفرنسيون، ويركعوا تحت قدمي، ويقدموا التماسهم.

+

في تلك اللحظة، لم يكن الشرط مجرد إجراء دبلوماسي؛ كان اختبارًا للكبرياء الإمبراطوري الأوروبي.

هل يمكن لإمبراطـوريةٍ تحكم البحار أن تنحني أمـام عرشٍ شرقي ؟

وهنا، يتجلى التناقض الإنساني في أبهى صوره: حين يختار القوي أن يركع، لا لأنه ضعيف، بل لأنه ينتظر لحظة الانتقام.

قالت الآنسة سابين، وعيناها تلمعان بشيءٍ يشبه الحزن :

وقبلت بريطانيا وفرنسا الشرط، نعم، قبلتاه.

صمتت قليلًا، ثم أردفت :

وأرسلتا مندوبًا عنهما، لورد أمهرست.

كان لورد أمهرست رجلًا من طينةٍ خاصة - مزيجٌ من الكبرياء والدهاء، من الغطرسة والقدرة على التنازل المؤقت.

سألها الراوي، وكأن السؤال يحمل في طياته دهشةً لا تُخفى :

هذا الرجل، من عتاة الاستعماريين المتكبرين، هل ركع فعلًا ؟

ابتسمت سابين ابتسامةً خفيفة، لكنها كانت أقرب إلى المرارة :

ركع، نعم، ركع كأي عبدٍ ذليل.

لكنها توقفت، وكأنها لا تريد أن تُبقي الصورة مسطحة :

لكنه لم يكن ركوعًا خاليًا من النية.

+

في داخل أمهرست، كان صراعٌ صامت.

ركبتيه تلامسان الأرض، لكن عقله كان في مكانٍ آخر—في لندن، في قاعات السلطة، في خرائطٍ تُرسم بدماء الآخرين.

كان يقول في نفسه :

انحنِ الآن، فقط الآن. فبعض الانحناءات ليست هزيمة، بل استثمار.

حصل على ما جاء من أجله - إطلاق سراح الأسرى.

لكن القصة لم تنتهِ هناك.

عندما عاد إلى لندن، لم يكن الرجل نفسه الذي غادرها. كان يحمل في داخله جرحًا من نوعٍ خاص - جرح الكبرياء.

دخل إلى مجلس الحكم، حيث يجلس لورد بالمرستون، أحد أعمدة السياسة البريطانية، رجل يعرف جيدًا كيف تُدار الإمبراطوريات.

قال أمهرست، وصوته مشحونٌ بمرارةٍ مكبوتة :

يجب تأديب هذا الإمبراطور،

ثم أضاف، بنبرةٍ لا تخلو من تهديد :

لن تقبل بريطانيا بأقل من إخضاع الصين بأكملها.

كان ذلك أكثر من مجرد اقتراح؛ كان إعلان نية.

نظر إليه لورد بالمرستون بعينٍ خبيرة، ورأى ما وراء الكلمات - رأى الغضب، لكنه رأى أيضًا الفرصة.

ابتسم ابتسامةً خفيفة، وقال ببطءٍ محسوب :

يا عزيزي، هناك أوقاتٌ ينحني فيها المرء، ليس ضعفًا، بل ليُحسن توجيه الضربة.

ثم اقترب قليلًا، وكأن كلماته يجب أن تُسمع لا أن تُقال :

أعدك، بأن بريطانيا كلها ستنتقم لك.

+

وهنا، تنتهي الحكاية الظاهرة، لكنها في الحقيقة تبدأ.

فالتاريخ لا يُقاس بلحظة الركوع، بل بما يليها.

لقد كان ذلك الركوع - في عمقه - بذرة حرب، شرارة صراعٍ سيُعيد تشكيل العلاقة بين الشرق والغرب.

+

حكمة التاريخ .

ليست القوة في أن لا تنحني أبدًا، ولا في أن تنحني دائمًا.

القوة الحقيقية تكمن في أن تعرف متى تنحني، ولماذا.

فالإمبراطور، في كبريائه، ظن أن الركوع انتصارٌ نهائي. وأمهرست، في إذلاله، عرف أنه مجرد فصلٍ في مسرحيةٍ أطول.

وبين الاثنين، يقف التاريخ شاهدًا على حقيقةٍ لا تتغير :

من يربح معركة الكرامة، قد يخسر حرب المصير، ومن يخسر لحظة، قد يربح قرنًا بأكمله.

على أعتاب التنين
حكاية التسلل والرفض في بلاط الإمبراطور

لم يكن في الأفق رجل أكثر ابتهاجًا بما أصاب الإنجليز من مهانةٍ مُرّة وإذلالٍ مُوجع من ذلك الدبلوماسي الفرنسي، الذي رأى في انكسار خصمه فرصةً تُصاغ من رمادها مكيدةٌ جديدة. كان قلبه، كقلب لاعب شطرنج مخضرم، لا يفرح بالخسارة ذاتها بقدر ما يترقب الحركة التالية التي ستُسقط الملك. لقد أدرك أن سقوط الهيبة البريطانية في أعين الصينيين لا ينبغي أن يمرّ كحدثٍ عابر، بل يجب أن يُستثمر، أن يُستخرج من بين شقوقه منفذٌ تنفذ منه فرنسا إلى قلب الإمبراطورية العتيقة.

كان ذلك الرجل يفكر لا بعين اللحظة، بل بعين التاريخ. كان يعلم أن الإمبراطوريات لا تُفتح دائمًا بالمدافع، بل كثيرًا ما تُستدرج بالهدايا، وتُستمال بالكلمات، وتُخترق بالأفكار. ومن هنا، صاغ خطته في دهاءٍ

بارد: أن يُرسل مندوبًا لا يحمل سيفًا، بل يحمل انحناءة؛ لا يرفع صوته، بل يخفض رأسه؛ لا يطالب، بل يتوسل.

وهكذا، انطلق المندوب الفرنسي إلى البلاط الإمبراطوري، وقد أُعدّ إعدادًا مسرحيًا دقيقًا، حتى في تفاصيل جسده. كان عليه أن يُجسّد الخضوع في أقصى صوره، أن يركع كما لم يركع أحد، وأن يسجد كما لو أن الأرض قد سحبته إليها بقوةٍ خفية. كان عليه أن يكون، في أعين الصينيين، نقيض الإنجليزي المتعجرف.

دخل القصر، وكان القصر عالمًا آخر، لا يشبه شيئًا من أوروبا. الأعمدة شاهقة، كأنها أشجارٌ حجريّة نبتت من رحم الزمن، والستائر حريرية، تتراقص كأطيافٍ في ضوءٍ ذهبي خافت، والهواء نفسه كان مشبعًا برهبة السلطة. في صدر القاعة، جلس الإمبراطور، صامتًا، ثابتًا، كأنه تمثالٌ حيّ، لا يتحرك إلا بقدر ما يتحرك التاريخ.

تقدّم المندوب، وانحنى. ثم انحنى أكثر. ثم سجد. وظلّ على تلك الحال، جبينه يكاد يذوب في بلاط القصر، ينتظر الإذن بالكلام. وحين أُذن له، رفع صوته بصعوبة، كأن الكلمات تُنتزع من حلقه انتزاعًا :

يا صاحب السعادة، مولانا إمبراطور الدنيا كلها، يا من تشرق الشمس على ملكه ولا تغرب، لسنا نطمع في شيءٍ عظيم، ولا نطلب ما يُثقل على جلالتكم. إنما نرجو، بكل تواضعٍ وخضوع، أن تأذنوا لنا بإنشاء بعض الإرساليات الكاثوليكية في مدنٍ الصين الكبرى، على أن تكون مدارس مدنية، يتعلم فيها من يشاء من أبناء هذا الشعب العظيم، دون أي تدخلٍ في شؤون دولتكم أو سياستها.

كانت الكلمات منسوجة بعناية، كأنها ثوبٌ من حريرٍ دبلوماسي. كل لفظةٍ تحمل ظلالًا من الاحترام، وكل جملةٍ تُخفي خلفها غايةً أبعد. كان المندوب يعرف أنه لا يخاطب رجلًا عاديًا، بل يخاطب عقلًا يرى في نفسه مركز الكون.

كنتُ أستمع إلى هذه الحكاية، وقد شعرتُ بأن الكلمات ليست مجرد سردٍ لتاريخ، بل كشفٌ لطبيعةٍ بشرية تتكرر عبر العصور. فقلتُ، بصوتٍ تأملي :

ذلك هو أسلوب التسلل الاستعماري الذي نجح في بلادٍ كثيرة. يبدأ بطلبٍ صغير، يبدو بريئًا، ثم يتوسع كجذرٍ خفيّ، حتى يُمسك بالأرض كلها.

+

ابتسمت الآنسة سابين، وكان في ابتسامتها شيءٌ من المعرفة المرة، وقالت :

أتعرف ماذا قال الإمبراطور ؟ وماذا فعل ؟

توقفت لحظة، كأنها تستحضر المشهد من ذاكرةٍ بعيدة، ثم تابعت :

ظلّ المندوب راكعًا، ينتظر. كان الصمت في القاعة ثقيلًا، كأن الزمن نفسه قد توقف. ثم، فجأة، تحرك الإمبراطور. لم يتكلم أولًا، بل رفع قدمه، ودفع بها المندوب دفعةً قاسية. كانت ركلةً لا تُعبّر فقط عن رفض، بل عن احتقارٍ عميق.

ثم قالت بصوتٍ أكثر حدة :

وقال : ألقوا بهذا الكلب ذي السحنة الشاحبة إلى الأفاعي.

ساد الصمت بيننا لحظة. كان المشهد صادمًا، عنيفًا، يكاد يكون بدائيًا في قسوته. فقلتُ، وقد امتزج في صوتي الاستغراب بالنفور :

ألا ترين أن هذا تصرفٌ وحشي ؟

نظرت إليّ الآنسة سابين نظرةً طويلة، كأنها تزن كلماتي، ثم قالت بهدوءٍ مشوبٍ بصرامة :

كان له ما يبرره يا عزيزتي.

ثم اقتربت قليلًا، وكأنها تريد أن تُدخلني إلى عمق الحكاية، لا إلى سطحها فقط :

أنتِ ترين الركلة، ولا ترين ما قبلها. ترين الكلمة، ولا ترين التاريخ الذي سبقها. تلك الإرساليات التي يتحدث عنها المندوب لم تكن جديدة. لقد سُمح لها من قبل بالدخول، وكانت النتيجة كارثية.

توقفت لحظة، ثم تابعت بصوتٍ ينخفض ويعلو كأنه يعيد تمثيل الوقائع :

لم تكن مجرد مدارس. كانت مراكز نفوذ. تدخلوا في السياسة، حاولوا التأثير في عقائد الناس، زعزعوا التوازن الاجتماعي. لكن الأخطر، الأخطر أنهم جعلوا من مبانيهم مراكز لبيع الأفيون.

ارتعش صوتها قليلًا وهي تقول :

تخيل، رجال ونساء، من مختلف الأعمار، يدخلون تلك الأماكن طلبًا للعلم، فيخرجون أسرى لذلك المخدر اللعين. الأفيون لم يكن مجرد تجارة، بل كان سلاحًا. سلاحًا يُضعف الإرادة، ويُخدّر العقول، ويُمهّد الطريق للسيطرة.

سكتت، وكأنها تترك للكلمات أن تستقر في أعماقي.

+

في تلك اللحظة، شعرتُ أنني لم أعد أرى الحادثة كما رأيتها أول مرة. لم تعد مجرد قصة عن إمبراطورٍ قاسٍ ومندوبٍ ذليل، بل أصبحت صراعًا أعمق، بين عالمين، بين رؤيتين للوجود، بين من يريد أن يدخل ولو عبر الباب الخلفي، ومن يخشى أن يتحول الباب إلى ثغرةٍ في جدار السيادة.

قلتُ، وقد بدأت أفكاري تتشابك :

إذن، إنجلترا وفرنسا لم تكونا مجرد دولتين تبحثان عن التجارة، بل كانتا تتربصان بالصين، كلٌّ بطريقته ؟

أجابت الآنسة سابين :

بالتأكيد. لكن الفرق أن كل واحدةٍ منهما كانت ترتدي قناعًا مختلفًا. إنجلترا جاءت بالسفن والمدافع، وفرضت تجارتها بالقوة. أما فرنسا، فاختارت طريقًا أكثر نعومة، لكنها لا تقل خطرًا.

ثم أضافت، بنبرةٍ تحليلية :

القوة الصلبة تفتح الأبواب، لكن القوة الناعمة تُبقيها مفتوحة. وهذا ما فهمه الفرنسيون جيدًا.

+

في تلك اللحظة، بدأتُ أتخيل عقل الإمبراطور نفسه. كيف كان يرى هؤلاء الغرباء؟ كيف كان يفسر طلباتهم ؟ هل كان يرى فيهم مجرد تجارٍ مزعجين، أم خطرًا حضاريًا يهدد بنية مجتمعه ؟

تخيلته جالسًا في قاعته، تحيط به رموز السلطة والتاريخ، وهو يستمع إلى كلمات المندوب. ربما لم يكن يرى رجلًا راكعًا، بل كان يرى خلفه أساطيل، وشركات، ومصالح، ومخططات طويلة الأمد. ربما كان

يدرك، بحدسه السياسي، أن كل ركوعٍ يخفي رغبةً في الوقوف لاحقًا، وكل تواضعٍ قد يكون مقدمةً لهيمنة.

وفي داخله، ربما دار حوارٌ صامت :

هؤلاء لا يأتون بلا سبب. لا أحد يقطع البحار من أجل تعليم أبنائي مجانًا. كل هديةٍ تحمل ثمنًا، وكل ابتسامةٍ تُخفي نية. لقد رأيتُ ما فعلوه من قبل. لن أسمح لهم أن يعيدوا اللعبة.

ثم، كأن قرارًا حاسمًا انبثق من أعماقه :

الرحمة هنا ضعف. والتسامح قد يُفسر كدعوةٍ لمزيد من التوغل. يجب أن يكون الرد واضحًا، صادمًا، لا لبس فيه.

وهكذا جاءت الركلة. لم تكن مجرد فعلٍ جسدي، بل كانت رسالة سياسية، تقول: هذه الأرض ليست مفتوحة لكل من يطرق بابها.

لكن، في المقابل، لم أستطع أن أتجاهل الوجه الآخر من الصورة. هل كانت القسوة ضرورية ؟ هل يمكن أن يكون هناك طريقٌ ثالث، بين الخضوع والتوحش ؟

عدتُ إلى الآنسة سابين، وسألتها :

ألا تعتقدين أن الرفض كان يمكن أن يكون أقل عنفًا ؟

أجابتني، بعد تفكير :

ربما. لكن التاريخ لا يُكتب دائمًا بأكثر الخيارات إنسانية، بل بأكثرها فاعلية في نظر من يتخذ القرار. الإمبراطور لم يكن فيلسوفًا يناقش فكرة، بل حاكمًا يحمي دولة. وفي تلك اللحظة، رأى أن الحزم هو اللغة الوحيدة التي ستُفهم.

ثم أضافت، وكأنها تُلخّص درسًا أوسع :

حين تكون الأمم مهددة، فإنها تميل إلى التطرف في ردودها. الخوف يصنع القسوة، كما يصنع الطمع الخداع.

ساد صمتٌ طويل بيننا. كان كلٌّ منا غارقًا في تأملاته، كأن الحكاية لم تنتهِ، بل بدأت تتشعب في داخلنا.

فكرتُ في ذلك المندوب، وهو يُسحب بعيدًا، مهانًا، وربما خائفًا. هل كان يؤمن حقًا بما قاله ؟ أم كان مجرد أداةٍ في لعبةٍ أكبر منه ؟ وهل

كان يشعر، في تلك اللحظة، أنه ضحية قسوةٍ غير مبررة، أم نتيجة طبيعية لخطةٍ مكشوفة ؟

ثم فكرتُ في الإمبراطور، الذي قد يُذكر في كتب التاريخ كطاغيةٍ متعجرف، بينما يرى نفسه حارسًا لبلاده من تسللٍ خفي.

وهنا، أدركتُ أن الحقيقة، كما هي دائمًا، ليست في طرفٍ واحد. بل هي شبكةٌ معقدة من الدوافع، والمخاوف، والمصالح.

رفعتُ رأسي، وقلتُ بهدوء :

ربما لم يكن السؤال: من كان على حق ؟ بل: من كان أكثر وعيًا بما يُدبَّر له ؟

ابتسمت الآنسة سابين، وقالت :

وهذا، في النهاية، هو جوهر التاريخ. ليس صراعًا بين خيرٍ وشر، بل بين وعيٍ وغفلة.

ثم أضافت، كأنها تُهدي خلاصة تجربتها :

والأمم التي لا تقرأ ما وراء الكلمات، قد تجد نفسها يومًا ما، وقد فُتحت أبوابها من الداخل.

وهكذا، انتهى الحوار، لكنه لم ينتهِ في داخلي. ظلّ يتردد كصدى، يُذكرني بأن كل طلبٍ بريء قد يحمل نيةً خفية، وأن كل رفضٍ قاسٍ قد يخفي خوفًا عميقًا.

وفي مكانٍ ما، بين الركلة والركوع، تُكتب حكايات الأمم.

الهوبو: حين يصبح النظام عقيدة

ضحكت الآنسة سابين، وهي تروي هذه الحكاية بصوتٍ تتداخل فيه السخرية بالإعجاب، وقالت :

الهوبو ليس مجرد دائرة حكومية، بل هو عقل الإمبراطورية حين تتعامل مع الغرباء. هو الحارس الذي لا ينام، والميزان الذي لا يميل، لأنه لا يملك رفاهية الخطأ.

ثم أضافت، وقد لمع في عينيها بريق تأملٍ عميق :

في كانتون، لم يكن الأجانب ضيوفًا، بل كانوا استثناءً يُدار بحذر.

+

اللقاء الأول: صدام الكبرياء

دخل نابير القاعة وهو يحمل في خطواته إيقاع الإمبراطورية البريطانية، كأن الأرض يجب أن تنحني تحت حذائه. لم ينحنِ، ولم يبتسم، بل نظر إلى الرجل الصيني كما ينظر السيد إلى خادمه.

قال، بصوتٍ مزيجٍ من البرود والغطرسة :

سيدي، إن التعليمات التي أحملها من حكومتي تمنعني من الحديث معك.

رفع رئيس الهوبو عينيه ببطء، وكأن الزمن نفسه تباطأ احترامًا لهدوئه، وقال :

ولِمَ ذلك، يا لورد ؟

في تلك اللحظة، اشتعل داخل نابير ذلك الصوت القديم، صوت الإمبراطورية التي لا تعترف بندٍّ لها. قال، وقد ارتفعت نبرته :

أنا من أكابر اللوردات في بلادي، ولا تليق بي منزلةٌ أقل من مخاطبة الإمبراطور نفسه، أو نائبه.

صمتٌ ثقيل سقط بينهما، كأنه حجرٌ في بئرٍ عميق.

ثم أجاب الصيني، بصوتٍ لا يحمل غضبًا ولا خضوعًا، بل يقينًا:

بوصفي رئيس الهوبو، فأنا المخوّل بإجراء الحديث مع ممثلي الدول الأجنبية.

ثم أضاف، دون أن يرفع صوته :

وأنا أرفض هذا الرفض.

في داخل نابير، لم يكن الغضب مجرد انفعال، بل كان انهيارًا لصورةٍ رسمها عن العالم. كيف يجرؤ هذا الرجل، الذي لا ينتمي إلى طبقة النبلاء الأوروبية، على مخاطبته بهذه الندية ؟

صرخ، وقد خرجت الكلمات كطلقاتٍ غير محسوبة :

أي غباء هذا ؟! فيم كنا نتكلم إذن ؟

لكن الصيني لم يرد. لأن الصمت، في ثقافته، ليس عجزًا، بل سيطرة.

+

بعد يومين: عودة الهدوء الذي يُخفي العاصفة .

عاد رئيس الهوبو إلى الوكالة البريطانية. لم تتغير ملامحه، ولم يظهر عليه أثر انفعال، كأن الأيام لا تترك أثرًا على من يتقن فن الانتظار.

قال، بنبرة رسمية :

لقد أطلعتُ نائب الإمبراطور على ما قلتم، يا لورد. وهو يعبّر عن أسفه لعدم استطاعته تغيير قواعد السلوك في بلادنا من أجل الأجانب، ذوي السحنة الشاحبة والأنوف الطويلة.

في تلك اللحظة، لم تكن الكلمات مجرد وصف، بل كانت مرآةً عاكسة للغطرسة المتبادلة.

اشتعل نابير :

الأجانب الكلاب !

توقّف الزمن لحظة.

ثم قال الصيني، بهدوء قاتل :

سيدي، هذا التعبير هو السائد هنا.

+

الصدمة: حين ينقلب الانتصار هزيمة .

إذن، نائب الإمبراطور يرفض مقابلتي ؟

نعم.

ثم أضاف، وكأنه يضع اللمسة الأخيرة على لوحةٍ معقّدة :

لكن حين عرض الأمر على جلالة الإمبراطور، فقد تفضّل، وقَبِل أن تتشرفوا بمقابلته.

في تلك اللحظة، شعر نابير بانتصارٍ مفاجئ. انتفخت روحه، وكأنها وجدت أخيرًا ما يؤكد تفوقها.

آه! هذا فضلٌ عظيم. يبدو أنكم بحاجة إلى تعلّم الكثير من آداب السلوك.

ثم قال، وهو ينهض:

سأذهب إلى إمبراطوركم الآن.

قال الصيني، بابتسامةٍ خفيفة، تحمل في طياتها ما لا يُقال :

يسعدني أن أكون في صحبتكم حتى بكين.

لكن ما لم يفهمه نابير، أن الرحلة إلى بكين لم تكن مجرد انتقالٍ في المكان، بل كانت عبورًا إلى عالمٍ لا تحكمه القوانين التي يعرفها.

+

في تلك الليلة، لم يستطع نابير النوم. جلس في غرفته، يحدّق في الظلام، كأنه يحاول أن يرى فيه انعكاس ذاته.

قال في نفسه:

كيف يمكن لهؤلاء أن يرفضوا؟ ألسنا نحن من نملك القوة؟ ألسنا نحن من نصنع التاريخ ؟

لكن صوتًا آخر، أعمق، همس :

أم أن التاريخ يُصنع هنا، دون أن نراه ؟

تذكّر نظرات الصيني. لم تكن نظرات خوف، ولا تحدٍّ، بل كانت نظرات يقين. وهذا ما أخافه.

+

حكمة التاريخ: حين تتكلم الأمم بصمت

إن هذا المشهد، في ظاهره، مجرد خلافٍ دبلوماسي. لكنه في عمقه، صدام بين رؤيتين للعالم:

- رؤية ترى في القوة حقًا مطلقًا .
- وأخرى ترى في النظام قداسةً لا تُمس .

ولعل أعظم دروس هذا اللقاء، أن الغرور لا يصطدم بالعدو، بل بالحقيقة.

+

ما بين الإمبراطور واللورد

لم يكن اللقاء بين نابير والهوبو مجرد حدثٍ عابر، بل كان شرارةً في مسارٍ طويل من الصدام بين الشرق والغرب.

فالتاريخ، في نهاية المطاف، لا يكتبه الأقوى فقط، بل من يفهم قواعد اللعبة.

وكما تقول الحكمة :

من دخل أرضًا بغير فهمٍ لها، خرج منها بفهمٍ لنفسه.

حين تتصادم الإمبراطوريات
مأساة الغرور عند أبواب بكين

استطردت سابين، وقد انعكس وهج الحكاية في عينيها كأنها تستدعي زمناً غابراً من رماد الذاكرة، فقالت بصوتٍ يحمل بين طبقاته ارتعاش التاريخ وهدير المصائر :

بلغ الموكب القصر الإمبراطوري في بكين، ذلك الصرح الذي لا يُقاس بالحجر ولا يُحدُّ بالسور، بل تُنسج هيبته من طقوسٍ متراكمة عبر قرون، ومن صمتٍ ثقيل يُلقي في النفس رهبةً لا تُقاوم. كان الهواء هناك

مشبعاً برائحة الخشب العتيق والبخور، كأن الزمن ذاته قد أُحرق ليصير دخاناً يتسلل إلى صدور الداخلين، فيثقل أنفاسهم ويعيد ترتيب أفكارهم على نحوٍ لا إرادي.

أبقوه في غرفة قصيّة، بعيدة عن ضجيج الردهات الرسمية، قريبة من صمتٍ يُشبه الاختبار. لم تكن غرفة احتجاز، بل مساحة انتظار مدروسة؛ جدرانها مطلية بألوان باهتة، وأثاثها بسيط لكنه محسوب، لا يشي بالفقر ولا بالترف، وكأن القصر يقول لزوّاره: هنا، لا شيء يُلهي عن الذات.

جلس اللورد نابير، وظهره مشدود كوتر قوس، يحدّق في تفاصيل المكان بعينٍ لا ترى سوى ما تريد أن تراه. أمامه وُضع فنجان شاي، صاعد البخار، هادئ الملامح، كأنه دعوة إلى التريّث، أو امتحانٌ للصبر. لكنه لم يمد يده. لم يكن في مزاجٍ يسمح له بأن يشارك في طقوسٍ لا يعترف بها، ولا في لحظةٍ يراها أقلّ من مقامه.

في داخله، كانت أفكارٌ متشابكة تتصارع، لكنه لم يكن مستعداً للاعتراف بذلك حتى لنفسه. كان يرى نفسه ممثلاً لإمبراطورية لا تغيب عنها الشمس، صوتاً لقوةٍ لا تُجادل، وامتداداً لهيبةٍ تفرض شروطها حيثما حلّت. ومع ذلك، كان في أعماقه، في تلك الزوايا التي يرفض النظر إليها، شعورٌ خفيّ بأن هذا المكان ليس كسواه، وأن قواعده لا تُكسر بسهولة.

دخل نائب الإمبراطور، بخطواتٍ محسوبة، لا استعجال فيها ولا تردد. كان وجهه هادئاً، لا يُفصح عن شيء، وعيناه تحملان ذلك البريق الذي يميز من تعوّد أن يقرأ الآخرين قبل أن ينطقوا. انحنى انحناءة خفيفة، ليست خضوعاً، بل تحيةٌ ذات نظام.

قال بصوتٍ رصين :

أهلاً بك في بكين يا لورد نابير، أرجو أن يكون الشاي الذي قُدّم لك قد أعجبك.

لم يكن السؤال بريئاً كما يبدو، بل كان مفتاحاً لحوارٍ أكبر، اختباراً أولياً لنبرة القادم. لكن نابير، وقد اشتعل في داخله شيءٌ من الضيق، ردّ بحدةٍ لا تخلو من احتقار :

دعنا من هذه السخافات. أريد أن أدخل على الإمبراطور على الفور.

توقف الزمن للحظةٍ قصيرة بين الجملتين. لم يتغير وجه النائب، لكن شيئاً في عينيه تحوّل، كأن طبقةً من البرود قد أُضيفت إلى ذلك الهدوء.

بالطبع يا لورد، بالطبع، قالها بنبرةٍ ملساء، ثم تابع: ولكن من القواعد المعمول بها في القصر أن يعرف جلالة الإمبراطور ما يريده الزائر، حتى لا يُهدر الوقت الثمين في مناقشاتٍ غير ضرورية.

في تلك اللحظة، شعر نابير أن الحوار ينزلق إلى أرضٍ لا يرغب فيها. هو لم يأتِ ليفاوض، بل ليملي. لم يأتِ ليتعلم، بل ليُعلّم. ومع ذلك، كان مضطراً أن ينطق، فرفع ذقنه قليلاً وقال :

طلبات دولتي محددة ولا تقبل النقاش. أولها أن يكون تعامل التجار الإنجليز مع زملائهم التجار الصينيين دون وساطة نقابة الهوبو والهُونج، وأن تُفتح كل الموانئ الصينية للسفن البريطانية دون أن تخضع لأي لونٍ من ألوان التفتيش، وأن تكون اتصالاتي، بوصفي ممثلاً لدولتي إنجلترا العظيمة القوية، وكذلك لدولة فرنسا، جارتنا وصديقتنا، مع الإمبراطور وحده، لا مع نائبه.

كان يتحدث وكأنه يقرأ مرسوماً لا يُراجع، أو يعلن قانوناً كونيّاً لا يُجادل فيه. في صوته صلابة، وفي كلماته يقينٌ لا يترك مساحةً للشك.

أومأ النائب ببطء، وكأن كل كلمة تُخزَّن في ذهنه بعناية :

سأبلغ جلالته بهذه الطلبات يا لورد.

كما قلت لك، لا نقاش في هذه الطلبات.

ابتسم النائب ابتسامةً خفيفة، بالكاد تُرى :

سأذكر لجلالة الإمبراطور هذا بكل وضوح. ثم أضاف بعد لحظة: هل أنت مستعد الآن للدخول على صاحب الجلالة ؟

ارتسمت على وجه نابير ملامح استنكار :

أي سؤال هذا؟ ولم آتِ إذاً ؟

أنت تعرف التقاليد.

هنا، اشتعل في داخله شيءٌ أعمق من الغضب؛ اشتعلت فكرة الندية المهدورة، شعوره بأن هذا الرجل، الهادئ أكثر مما ينبغي، يحاول أن يضعه في موضع التلميذ لا المبعوث.

أي تقاليد؟ قالها بحدةٍ واضحة، ثم تابع: مثلي لا يخضع لتقاليد همجية. تعني الركوع؟ لا، أنا أرفض هذا.

ساد صمتٌ ثقيل، كأن الجدران نفسها تنتظر الرد. كان النائب ما يزال واقفاً في مكانه، دون أن يتغير وضعه، لكنه بدا الآن أكثر حضوراً، كأن صمته ذاته أصبح خطاباً.

ثم قال، في أدبٍ وهدوءٍ لا يخلو من حزم :

إننا، في العادة يا صاحب السعادة لورد نابير، نرمي للأفاعي أي أجنبي يرفض الركوع عند قدوم الإمبراطور.

لم تكن تهديداً صريحاً، بل تقريراً لعادةٍ قديمة، لكنها وقعت في نفس نابير كصاعقة. للحظة، شعر أن الأرض التي يقف عليها لم تعد صلبة كما كان يظن.

قال، محاولاً استعادة صلابته :

سأدخل رغم أنوفكم، ولن أركع.

لكن صوته، وإن بقي عالياً، فقد شيئاً من حدته الأولى. كان في داخله الآن ارتباكٌ خفي، لم يعتد أن يختبره.

رد النائب، دون أن يرفع صوته :

في هذه الحالة، سنقبض عليك، وتُلقى بك إلى الأفاعي.

كانت الجملة بسيطة، خالية من الزخرفة، لكنها محمّلة بثقلٍ لا يُحتمل. أدرك نابير، في تلك اللحظة، أن الرجل لا يمزح، وأن خلف هذا الهدوء نظاماً كاملاً لا يتردد في تنفيذ ما يقول.

هنا، ولأول مرة منذ دخوله القصر، تسلل الخوف إلى داخله، لا كعاصفة، بل كخيطٍ بارد يلتف حول قلبه ببطء. تذكّر فجأة أنه بعيد، بعيد جداً عن أرضه، وأن القوة التي يمثلها لا تحيط به هنا، بل تقف خلف بحارٍ وقارات.

في داخله، دار حوارٌ صامت :

هل يمكن أن ينتهي الأمر هنا ؟ في غرفةٍ صامتة، في قصرٍ لا يعرف اسمي ؟ هل يُعقل أن تتحطم صورة الإمبراطورية عند قدمي رجلٍ لا يرفع صوته ؟

لكنه، في الوقت ذاته، لم يكن مستعداً أن ينهار تماماً. فرفع رأسه، وقال بنبرةٍ أقل حدة، لكنها أكثر واقعية :

إذن أعود إلى كانتون، ولكنكم، أيها الرجل، ستدفعون ثمن تهديد لوردٍ من لوردات بريطانيا، وممثل إمبراطورها.

لم يرد النائب فوراً. نظر إليه لحظةً، نظرةً طويلة، كأنها تقيس ما تبقى فيه من عناد، ثم قال :

التاريخ، يا لورد، لا يُكتب بالتهديدات، بل بالأفعال. ونحن، هنا، لا نخشى الأسماء، بل نحترم القواعد.

خرج بعد ذلك، تاركاً نابير وحيداً مع صمته.

+

في تلك اللحظة، لم يعد القصر مجرد بناء، بل أصبح مرآة. مرآةٌ يرى فيها نابير نفسه، لا كما يريد أن يراها، بل كما هي: رجلٌ يقف عند تخوم عالمٍ لا يفهمه، يحمل يقيناً لم يُختبر، وغروراً لم يُكسر، بعد.

جلس، أخيراً، وأخذ فنجان الشاي بيده. نظر إليه طويلاً، ثم ارتشف منه رشفةً صغيرة. كان الطعم هادئاً، متوازناً، لا يشبه شيئاً مما اعتاد عليه. وكأن هذا الشاي، الذي تجاهله في البداية، كان يحمل درساً لم يفهمه إلا متأخراً :

أن القوة، حين تفقد قدرتها على الإصغاء، تتحول إلى ضعفٍ متخفٍ، وأن الحضارات لا تُقاس بمدى صخبها، بل بقدرتها على الصمود في صمت.

+

رفعت سابين نظرها، وقد خفت صوتها قليلاً، وقالت :

وهكذا، لم يكن اللقاء بين الرجلين مجرد مواجهة دبلوماسية، بل كان صداماً بين رؤيتين للعالم؛ رؤيةٍ ترى نفسها مركز الكون، وأخرى ترى الكون نظاماً لا يختل. وبينهما، وقف إنسان، بكل ما فيه من كبرياءٍ وخوف.

ثم أضافت، وكأنها تلخص حكمة القصة:

في لحظات التاريخ الفاصلة، لا تُهزم الإمبراطوريات بالسيوف فقط، بل تُهزم حين تعجز عن فهم أن العالم أوسع من حدودها، وأن الكرامة ليست امتيازاً، بل لغةٌ مشتركة، من يجهلها، يدفع الثمن.

حين اشتعل الغرور
سيرة غضبٍ يقود إلى الحرب

لم يغادر نابيير بكين كما يغادر الدبلوماسيون المدن حين تُغلَق الأبواب في وجوههم؛ لم يكن انسحابه هدوءًا تكتيكيًا ولا صمتًا مدروسًا، بل كان ارتدادًا عنيفًا، كارتداد موجة اصطدمت بصخرٍ صلد، فتناثرت رغوةً وغضبًا. خرج من أسوار المدينة العتيقة وقلبه يغلي، وقد اختلطت في صدره مشاعر الإهانة بالعجز، فصار الرجل كمن يختنق بكرامته المجروحة أكثر مما يختنق بمرضه الذي بدأ ينهش جسده.

كان يرى نفسه ممثلًا لإمبراطورية لا تُهزم، ظلها يمتد عبر البحار، وصوتها يُسمع في القارات البعيدة. فكيف إذن يُقابل هذا الامتداد بالصمت؟ كيف يُقابل هذا الحضور بالبرود الإمبراطوري الصيني الذي لا يعترف إلا بذاته؟ لقد بدت له بكين، بعظمتها الصامتة، كأنها مرآة تكشف ضآلة كبريائه لا عظمته.

وفي طريقه إلى الجنوب، كانت الرسائل تتدفق من يده كما يتدفق الدم من جرحٍ مفتوح. كتب إلى لورد بالمرستون بلهجة لا تخلو من تحريضٍ صريح، ولا من نبرة استعلاء جريحة. لم تكن تلك الرسائل تقارير دبلوماسية باردة، بل كانت صيحات رجلٍ يرى في الحرب خلاصًا شخصيًا، وفي القصف علاجًا للإهانة.

كان الليل يطول عليه، وكان المرض يتسلل إلى جسده كما يتسلل الشك إلى العقل. وعلى فراشٍ تداخل فيه الهذيان باليقظة، أخذ يحدث نفسه، أو ربما كان يخاطب شبحًا من صنع خياله :

أنا الذي جئت لا لأساوم، بل لأؤدّب... أنا الذي حملت هيبة بلادي على كتفي، أُقابل بهذا الصدد ؟ أأنا أقل شأنًا من أن يُرد عليّ ؟ أم أن هذا الإمبراطور الغارق في أوهامه يظن أن العالم ينتهي عند أسوار قصره ؟

توقف لحظة، وكأن أنفاسه تثقلها الفكرة ذاتها.

لا... لن يكون الصمت نهاية الأمر. إنهم لا يفهمون إلا لغة القوة. سأجعلهم يفهمون. سأجعل هذا الشرق الساكن يرتجف.

+

في تلك اللحظات، لم يكن المرض مجرد عارضٍ جسدي، بل كان حالة نفسية مركبة؛ مزيجًا من جرح الكبرياء، واحتقار الآخر، وشعورٍ دفين بأن التاريخ نفسه يجب أن ينحني لإرادته.

مرّ شهر، وكان التعافي الجسدي أسرع من تعافي العقل. خرج نابيير من مرضه كما يخرج البركان من سباته: أكثر اضطرامًا، وأشد رغبة في الانفجار. لم يتعلم من ضعفه، بل ازداد به تصلبًا، كأن المرض لم يكن إلا وقودًا جديدًا لغضبه القديم.

في كانتون، حيث المياه تحمل انعكاس السماء وتخفي في أعماقها توترات السياسة، كانت السفن البريطانية ترسو في صمتٍ مترقب. هناك،

وقف نابيير، وقد استعاد شيئًا من صلابته الظاهرية، لكنه فقد ما تبقى من توازنه.

قال، بصوتٍ حاول أن يجعله واثقًا، لكنه لم يخفِ ارتجافًا داخليًا :

سيخر هذا الإمبراطور اللعين على ركبتيه حين يرى سفننا تشق طريقها في النهر. القوة وحدها تُعلّم هؤلاء كيف يحترمون.

كان أمامه قائد الأسطول، رجل بحرٍ خبر العواصف أكثر مما خبر نزوات الساسة. نظر إليه بدهشة لا تخلو من قلق، وقال :

سيدي، أتعني أن ندخل النهر ؟ أن نخترق تحصينات كانتون ؟

لحظة صمت قصيرة، لكنها كانت كافية ليظهر فيها التردد الإنساني أمام القرار المتهور.

نعم، هذا ما أعنيه.

لكن هذا إعلان حرب... هل صدرت أوامر من لندن ؟

+

في تلك اللحظة، لم يكن السؤال إداريًا، بل كان أخلاقيًا وتاريخيًا. كان القبطان يسأل:

هل نحن أدوات لقرار مدروس، أم ضحايا لنزوة رجل ؟

أجاب نابيير، دون أن يشيح ببصره :

نعم، صدرت.

كان الكذب هنا ليس مجرد لفظ، بل كان خطوة نحو الهاوية.

اقترب القبطان قليلًا، وكأنه يبحث في ملامح الرجل عن أثرٍ للصدق :

أرجو أن أطلع على تلك الأوامر، يا صاحب السعادة.

وهنا انفجر الغضب، لا لأنه سُئل، بل لأنه كُشف في داخله :

أتكذب لورد شارلز نابيير ؟ !

ارتبك القبطان، لكنه لم يتراجع :

كلا، يا سيدي... ولكن...

قاطعه نابيير بحدة :

نفذ الأوامر فورًا.

ساد صمت ثقيل، صمت يحمل في طياته حياة رجالٍ ومستقبل علاقات بين إمبراطوريتين.

قال القبطان، بصوتٍ أكثر حذرًا :

سيدي، هذا يعرض كل بريطاني، بل وكل أجنبي على أرض الصين للخطر. إننا...

أنا وحدي من يقدّر النتائج.

لم يكن ذلك تصريحًا بالقوة، بل كان اعترافًا بالعزلة؛ عزلة القرار حين ينفصل عن العقل الجمعي.

حاول القبطان للمرة الأخيرة، مستندًا إلى منطقٍ بسيط :

على الأقل، لنقم بإجلاء الرعايا قبل أي تحرك عسكري.

نظر إليه نابيير، وكأن الزمن قد توقف عند فكرة واحدة :

لا وقت لهذا. نفذ الأوامر.

+

في تلك اللحظة، لم يكن المشهد مجرد مواجهة بين رجلين، بل كان صراعًا بين عقلين: عقلٍ يرى القوة وسيلةً أخيرة، وعقلٍ يراها أولى وأخيرة معًا. كان القبطان يمثّل التاريخ حين يتعلم من أخطائه، بينما كان نابيير يمثّل الإنسان حين يرفض أن يتعلم.

في أعماق نابيير، كانت هناك قصة أخرى، لا تُرى في قراراته، بل في دوافعه. لقد تربى على فكرة التفوق، على أن الإمبراطورية ليست مجرد كيان سياسي، بل قدرٌ تاريخي. ومن هنا، لم يكن رفض الصين له مجرد موقف دبلوماسي، بل كان تهديدًا لصورة العالم التي يحملها في ذهنه.

لقد رأى في الإمبراطور الصيني، لا حاكمًا مختلفًا، بل خصمًا شخصيًا. رأى في الصمت إهانة، وفي البروتوكول تحديًا، وفي السيادة الصينية تمردًا على النظام الذي يؤمن به.

وهنا تكمن المأساة: حين يتحول الاختلاف إلى إهانة، والحوار إلى معركة، والسياسة إلى ساحة لتصفية الجراح النفسية.

+

يروي التاريخ أن الحروب لا تبدأ دائمًا بقرارات عقلانية، بل كثيرًا ما تولد من لحظات ضعفٍ إنساني، حين يختلط الكبرياء بالخوف، والسلطة بالهشاشة. ونابيير، في تلك اللحظة، لم يكن قائدًا بقدر ما كان إنسانًا جريحًا، يحاول أن يداوي نفسه بمدافع السفن.

ومن الحكم التي يمكن أن تُستخلص من هذا المشهد :

ليس أخطر على الأمم من رجلٍ يظن أن كرامته الشخصية هي كرامة دولته، وأن جرحه الخاص يستحق أن يُضمد بدماء الآخرين.

القوة التي لا يضبطها عقل، تتحول من أداة حماية إلى أداة هدم.

التاريخ لا يخلد من انتصر فقط، بل من عرف متى لا يقاتل.

أما القبطان، فقد ظل في تلك اللحظة شاهدًا على عبث القرار. كان يعلم أن البحر، مهما اتسع، لا يخفي نتائج الحماقة. وكان يدرك أن النهر الذي طُلب منه دخوله، ليس مجرد مجرى ماء، بل ممر نحو أزمة أكبر، نحو شرخٍ في العلاقات، نحو نارٍ قد تمتد إلى ما هو أبعد من كانتون.

لكن الأوامر، حين تصدر من عقلٍ مغلق، لا تُناقش بقدر ما تُنفذ، حتى لو كان التنفيذ بداية الكارثة.

وهكذا، وقف الرجلان على حافة التاريخ: أحدهما يدفع، والآخر يتردد، وبينهما مصير أمةٍ على وشك أن تدخل فصلًا جديدًا من الصراع.

وفي مكانٍ بعيد، ربما في قصرٍ صيني هادئ، كان الإمبراطور لا يزال يجهل أن قرارًا اتُخذ في لحظة غضب، قد بدأ بالفعل في تغيير مجرى الأحداث.

وهنا، تتجلى المفارقة الكبرى: أن التاريخ، بكل ثقله، قد ينحني أحيانًا أمام لحظة نفسية عابرة، وأن مصائر الشعوب قد تُرسم، لا في قاعات الحكم وحدها، بل في صدور رجالٍ لم يعرفوا كيف يهزمون أنفسهم قبل أن يحاولوا هزيمة الآخرين.

حين انحنى الكبرياء
مأساة نابير على ضفاف كانتون

في مساءٍ ثقيلٍ تتكاثف فيه الظلال كما لو أنّها بقايا تاريخٍ لم يُمحَ بعد، كنا نجلس في صالونٍ عتيقٍ تلوح على جدرانه خرائطُ الشرق الأقصى، تتقاطع فوقها طرقُ التجارة كما تتقاطع الأقدار في مسرحٍ خفيّ. كانت الآنسة سابين، بعينيها اللتين تشبهان صفحة ماءٍ راكدٍ يخفي في

عمقه عواصف، تقف عند النافذة، كأنها تُصغي إلى زمنٍ بعيد، لا إلى أصوات الحاضر.

سألتُها، وقد أخذني الفضول إلى حافة التوتر :

أحقًا اقتحمت السفن الحربية مدخل النهر ؟

لم تلتفت فورًا. ظلّت تحدّق في الأفق، كأنها تستعيد مشهدًا محفورًا في ذاكرتها لا يُستدعى إلا بثمن. ثم قالت، بصوتٍ منخفضٍ لكنه نافذ :

أجل، لقد تركها الصينيون تتوغل.

توقفت لحظة، وكأنها تزن الكلمات لا لتروي الحدث، بل لتعيد خلقه.

تركوها تتقدم ثلاثة أيام، ثلاثة أيام من الغرور الصامت. لم تكن مقاومة، بل صمتٌ محسوب، أشبه بابتسامةٍ باردةٍ على شفاه إمبراطورية تعرف متى تضرب دون أن ترفع سيفًا.

جلستُ قبالتها، وبدأت أشعر أن القصة لا تُروى، بل تُفتح كجرحٍ قديم. ثم ماذا ؟ سألت.

أجابت، وقد انعكس في صوتها شيءٌ من الأسى :

حين توقفت السفن، أصدر نابير أوامره، أمر بإطلاق المدافع على الصينيين، الذين كانوا يتابعون المشهد كما لو أنه عرضٌ هزلي. لكن الكابتن إنفرِس، رفض.

رفعت حاجبها قليلًا، وفي عينيها لمعة احترامٍ لرجلٍ لم تره قط.

رفض أن يطيع.

سكتت، وكأنها تترك للرفض وزنه الأخلاقي يتردد في الغرفة.

عاد بالأسطول خائبًا إلى مدخل الميناء.

لم يكن الصمت الذي أعقب كلماتها صمت فراغ، بل صمت امتلاء. كنت أفكر في تلك اللحظة: قائد يُؤمر بالقصف، فيرى في الأمر حماقةً، فيتمرّد. أي شجاعة تلك التي تعصي السلطة باسم العقل ؟ وأي مأساة تُولد من هذا التمزق ؟ .

قلت، محاولًا أن أوازن بين الإعجاب والدهشة :

لكنه، على أي حال، تحدّى إمبراطور الصين على أرضه.

ابتسمت الآنسة سابين ابتسامةً خفيفة، لكنها كانت ابتسامة من يعرف نهاية الحكاية.

نعم، ودفع الثمن.

ثم اقتربت من الطاولة، وأسندت يدها إليها، كأنها تستند إلى يقينٍ لا يتزعزع :

الإمبراطور لم يحتج إلى المدافع. لم يحتج إلى سفن. أصدر أوامره، بالأسلوب الصيني.

كانت تقول الأسلوب الصيني كما لو أنه فلسفة كاملة، لا مجرد إجراء.

لا تعامل مع الوكالة الإنجليزية. لا بيع، لا شراء. لا طعام، لا ماء. يُحظر على أي صيني أن يمد الإنجليز بشيء.

توقفت، ثم أضافت بصوتٍ أكثر عمقًا :

لقد حاصرهم، بالجوع.

ارتعشت الفكرة في داخلي. أي حربٍ تلك التي لا يُسمع فيها صوت الرصاص، لكن يُسمع فيها صرير المعدة الخاوية ؟ أي قوةٍ تلك التي تُخضع خصمها لا بإراقة دمه، بل بتركه يذبل ؟

قلت :

وماذا عن الرد العسكري؟ ألم يكن بوسعه أن يرد بقوة ؟

نظرت إليّ الآنسة سابين نظرةً طويلة، كأنها تختبر سذاجة السؤال.

كان يستطيع، بل كان قادرًا على ردٍ مفزع. لكنه لم يُرِد الانتصار العسكري. أراد الإذلال.

ثم همست، وكأنها تكشف سرًا :

أراد أن يُحطّ من قدر نابير.

+

في تلك اللحظة، لم يعد نابير مجرد شخصية تاريخية، بل صار إنسانًا يُداس كبرياؤه ببطء، تحت وطأة قرارٍ محسوب.

جلست الآنسة سابين، وأراحت ظهرها، ثم تابعت :

وقد نجحت الخطة. أصبح الإنجليز في كانتون مهددين، جوعًا وعطشًا. لا طعام، لا تجارة، لا كرامة.

كان في صوتها شيءٌ من القسوة، كأنها تُقرّ بأن التاريخ لا يرحم من يسيء تقدير خصمه.

وعندها، - تابعت - كتب لورد بالمرستون إلى نابير.

تغيرت نبرة صوتها، وصارت أكثر حدّة، كأنها تستعير صوت السلطة نفسها :

عليك أن تصلح ما أفسدت. إما أن تذهب إلى بكين، وتنحني عند قدمي الإمبراطور معتذرًا، أو تعود إلى بريطانيا فورًا.

توقفت، ثم أضافت ببطء :

وسيأتي من يفعل ما عجزت أنت عنه.

شعرت بشيءٍ من الاختناق. لم يكن هذا خطابًا، بل حكمًا بالإدانة.

قلت، وأنا أحاول أن أجد في الأمر شيئًا من العدالة :

كأن بالمرستون، أقرّ وجهة نظر الإمبراطور ؟ احترم التقاليد الصينية ؟

ضحكت الآنسة سابين، لكن ضحكتها كانت قصيرة، خالية من الفرح.

أبدًا.

ثم اعتدلت في جلستها، وقالت بصوتٍ صارم :

لقد قال في مجلس العموم، وهو يكاد يغلي من الغيظ: لا ألوم اللورد نابير على اتخاذ إجراءات عسكرية، بل ألومه على توقيتها.

رفعت إصبعها، وكأنها تؤكد على كل كلمة :

وليطمئن المجلس، أننا سنرد للإمبراطور الصاع صاعين، وفي أقرب فرصة.

ساد الصمت مجددًا. لكن هذه المرة، كان صمتًا ثقيلًا، كأن المستقبل نفسه يحمل في طياته عاصفة.

في داخلي، بدأت صورة نابير تتشكل، رجلٌ بين إمبراطورٍ يذلّه، وحكومةٍ تلومه. بين كبرياءٍ جريح، وأوامرٍ متناقضة. ماذا كان يشعر؟ هل أدرك، في تلك اللحظة، أنه صار مجرد ورقةٍ في لعبة أكبر منه ؟

سألتها بصوتٍ خافت :

وماذا فعل نابير ؟

أطرقت الآنسة سابين رأسها قليلًا، ثم قالت :

ابتلع الإهانتين.

رفعت نظرها إليّ، وفي عينيها شيءٌ يشبه الشفقة:

إهانة الإمبراطور، وإهانة رئيس وزرائه.

ثم أضافت، كأنها تختم فصلًا من مأساة :

وغادر كانتون.

توقفت لحظة، ثم قالت بصوتٍ يكاد يكون همسًا :

على سفينةٍ برتغالية، إلى مكاو.

كان في المشهد شيءٌ من التراجيديا الكاملة :

رجلٌ جاء ممثلًا لإمبراطورية، يغادر على متن سفينةٍ ليست حتى من بلاده.

وهناك، - تابعت - مات.

سكتت. انتظرت.

ثم قالت الكلمة التي سقطت كحجرٍ في ماءٍ راكد:

كمَدًا.

+

في تلك اللحظة، لم يعد التاريخ مجرد أحداث. صار تجربة إنسانية كاملة. رأيت في نابير صورة الإنسان الذي يثق بقوته أكثر مما ينبغي، فيصطدم بثقافةٍ لا يفهمها، ونظامٍ لا يرحم.

رأيت في الإمبراطور عقلًا باردًا، يدرك أن الهيبة لا تُصان بالمدافع فقط، بل بإخضاع الخصم نفسيًا.

ورأيت في بالمرستون نموذج السلطة التي لا تعترف بالخطأ، بل تؤجله إلى حربٍ قادمة.

أما الآنسة سابين، فقد كانت أكثر من راوية. كانت شاهدًا على أن التاريخ ليس مجرد صراع قوى، بل صراع عقولٍ ونفوس، حيث تُهزم الإمبراطوريات أحيانًا، قبل أن تُطلق أول رصاصة.

+

خرجتُ من ذلك اللقاء وأنا أفكر: كم من نابير في هذا العالم ؟ وكم من إمبراطورٍ يعرف كيف يهزم خصمه دون حرب ؟

وهل الهزيمة الحقيقية، هي خسارة المعركة، أم فقدان الكرامة قبل أن تبدأ ؟

كانت الريح في الخارج تعصف، لكنني كنت أعلم أن العاصفة الحقيقية، قد حدثت بالفعل، هناك، على ضفاف كانتون، حيث انحنى الكبرياء، ومات كمَدًا.